Bibliotheca Alexandrina
0139931

بنيتو موسوليني

خواطر زعيم

دار "مجلتي" للطبع والنشر

ارنلدو موسولینی

فهرس

	صفحة
المقدمة	٣
حياة ارنلدو موسوليني	٧
حياة سندرو موسوليني	٤٩
أحاديث لموسوليني بقلم اميل لدفيج	٦٥
تمهيد	٦٧
مذكرات الحرب	٩٥
الاستعداد الحربي	١٠٠

الاهداء

الى ذكرى سعد زغلول

المقـــدمة

لم أدفع بهذا الكتاب إلى الناشر إلا عن اعتقاد فى فائدته ورغبة فى دعوة كتابنا جميعا — عن طريق مباشر عام رسمى لا يستطيعون تجاهله — إلى سد نقص شنيع فى أدبنا الحديث، وهو خلوه التام من كل ماله صلة بتاريخ ثوراتنا القومية الخالية والراهنة، وبدراسة نهضات الأمم الفتية التى بين حياتها وحياتنا شبه قد يكون البحث فيه وإذاعته مما يعزز الآمال ويقوى الصدور

فى مصر ظمأ شديد لهذا النوع من الأدب، وهو السبب الأول فى الرجة التى قوبلت بها الكتب التاريخية التى ظهرت أخيرا، إلا ان هذه الكتب غير شعبية بينما نحن فى حاجة الى من يصهر لنا ماضينا بحاضرنا، ويجعل منهما عنصراً واحداً يغذى به

قلوب هذه الأمة المفككة المنقسمة على نفسها فى تيارات نفسانية وثقافية واجتماعية عدة تكاد تذهب بطابعها وتحرمها من كل جمال خلقت به ، ولن يتأتى هذا لكتابنا إن لم يتخلصوا من قيود المنطق وصعوبات التفكير العويص ولاحظوا قبل كل شيء أنهم يكتبون للشعب وتهذيبه ، وان الشعب فى حاجة لى من يعلمه ماضيه عن طريق العاطفة أولا .

إنى مؤمن إيمانا لا يتزعزع بان للجيل الحاضر فى مصر حظا لا يضارعه فيه جيل معاصر آخر . حظ إحياء أمة آن لها أن تبعث، واثق من ان هذا الجيل يستطيع أن يؤدى رسالته بتهذيب هذا الشعب وتغذية آماله عن طريق إذاعة تاريخ آبائه وإيقافه على ما يحدث حوله بين أمم لها ما له فى التاريخ وله مالها بحكم هذا التاريخ نفسه فى الحاضر والمستقبل

فى العالم المحيط بنا أمثال ناطقة عديدة تدل على ان كل شعب كان يستطيع أن يكون إذا مادخل دفينة نفسه وأطل على العالم لا لتقليده بل ليقيس مكانته منه ويتغذى بالعناصر الحية فيه . يجب أن ندرس عناصر نهوض هذه الأمم . يجب أن نستوعبها ونلجأ اليها فى جهادنا المقدس . ويجب أن ندرس تاريخنا قبل كل شيء . .

ولقد كان بودى أن يكون كتيبى هذا بابا فى هذا النوع من الدرس ، إلا انى وجدته أوسع من أن تكفيه ثقافتى المحدودة ،

لذا اكتفى بنشره للتنبيه، وبتقديمه إلى كل من يبحث فى قرارة نفسه، فى مصر والشرق، عن مثال للقوة، ومبعث للأمل.

فليقرأه كل من يحيا وعيناه متجهتان نحو مثل أعلى يسعى الى تحقيقه على انه تتاج نفس كبيرة رحبة جابهت العالم مرفوعة الرأس، وبصمت جبهته بطابع لن يمحى. فليقرأه كل من يتألم لجهل أبناء مصر بحياة مصر. فليقرأه كل من يصبو بنفسه وروحه إلى رؤية اليوم الذى تجد فيه مصر من بين أبنائها القمينين بأداء رسالتها الشرقية الصميمة فى عصر يتطلع العالم فيه إلى نور الشرق

صبحى وحيده

حياة ارنلدو موسوليني

بقلم أخيه

القسم الأول

الذكريات الاولى

٢٥ ديسمبر ١٩٣١

أريد أن أشرع هذا المساء في وضع الكتاب الذى سأهديه لذكرى ارنلدو . ولقد بدأت اليوم فحص الأوراق التى تركها فى قصر البندقية ، واستغرقت فى ذلك ست ساعات كنت أشعر أثناءها بضرورة هذه العملية الدقيقة التى قمت وسأقوم بها فى قلق نفسانى مروع ، فوجدت بين ما وجدت مخطوطات لخطب لى كنت أظنها مفقودة ، وسندات على شيء من الأهمية السياسية ، وخطابات قديمة وحديثة منى ومن آخرين إلى ارنلدو . واتفقت لى أيضا مسودات كتاب لمن تدعى السيدة « بندتى دى تشزينا » لمحت فيها تاريخ ٢٥ سبتمبر ١٨٩٦ وهو تاريخ أول آلامنا أنا وارنلدو ، ولعله أول آلام ادفيجا أيضاً ، فقد كانت صغيرة جداً حينئذ ، وأعنى به وفاة جدتى « مرنياجتى » . انى أذكرها فى وضوح تام : كانت امرأة طويلة ، معروقة ، دائمة الحركة ، دأبها أن تسعى على ضفة النهر ، وأن تجمع ما تتركه عليها الفيضانات من قطع خشبية . كانت لا تقبل الجلوس معنا إلى المائدة لنستهلك اطعمتنا الجافة . وهى تتألف طيلة الأسبوع من شربة خضار فى الظهر ، وصحفة شكوريا برية فى المساء نأكلها معا فى نفس الصفحة ، ثم نصف كيلو لحم شاة يوم الأحد كنا نضطر لقشط زبده

باستمرار ، وكانت لها ـ رغم تدينها ـ لازمة لسانية هي أن تقول « لعن الله الفحش » ، وكانت تحبنا حبا جما وكنا نغضبها علينا إغضابا شديداً .

سرنا عصر ذلك اليوم البعيد ـ يوم ٢٥ سبتمبر ـ أمنا ونحن أبناءها الثلاثة ، إلى كرمة كانت قد اكترتها لنا في كمرونا لمدة تسع سنين . لم تكن كرمتنا هذه كبيرة ، ولم تكن تنتج لنا أكثر من عربة عنب أي ما يعادل ثمانية قناطير ، ولكنها كانت تحتوي على ثلاث تينات منها تينة لها أثمار حلوة بنوع خاص . كانت عادتنا حينئذ أن نسير إلى كرمتنا من فرانو ونصعد في سبيل منحدر بين كروم « فيليبونا وجيوليانو » ثم نمر من حقل « كارولا » وهو في حراسة كلب كبير كان يخيفنا دائما ويضطرنا إلى حشو جيوبنا بالأحجار على مسافة كيلو متر منه ، وأخيراً كان يبدو لنظرنا شط رومانيا وأبراج فورلي الثلاثة ، وعلى بعد منها شريط البحر الأزرق بين « تشرفينا وتشزنتكو » فكان هذا المنظر الرحيب يقرعيني ويبعث نفسي على التأمل .

كان عصر ذلك اليوم الذي أمضيناه في كرمة كوكلن كئيباً لا أدري مبعث كآبته ولكننا اجتمعنا أخيرا بأمنا وتغنينا بأغان قديمة كانت إحداها تقول :

لقد نبه بريق السيوف الخاطف
عروشا وشعوبا

هيا أيها الأيطاليون إلى الميدان . إلى الميدان
فقد دعانا الوطن !

لست أدرى لمن هذه الأبيات حتى اليوم ، وقد خلت ستة وثلاثون عاما ، ولكننا عند ماسألنا والدتنا أجابتنا بأن جندستى ١٨٥٩ و ١٨٦٦ كانوا يتغنون بها .

وآذنت الشمس بالمغيب فهبطنا فرانو وبلغناها فعلا بعد أن خيم الظلام وإذ بـ « بتينا دى سكارينو » تقبل نحونا عندمدخل الطرقة وتنبأنا بأن « مرينا » مريضة

رقينا جميعاً الدرج واثبين عندما سمعنا الخبر ، فألفينا جدتنا تحشرج . .

وتوفيت فشيعوها بجنازة بسيطة جدا . إذ كانت العادة جارية حينئذ بأن يدفع أهل الميت للنسوة اللاتى يشتركن فى الجنازة قطعة من فئة السولدى أو الليرة

أرسلونا أنا وأرنلدو يومئذ إلى حقل « بيولا » فيما وراء النهر حيث كانت خالتنا « فرنشسكا » تفلح الأرض ، فسرنا لساعتنا يرافقنا صوت ناقوس كنيسة « سان كسيافو » برناته الحزينة

كان صباحا صحوا هادىء الشمس ، وكانت الكروم قد آن وقت جمعها فصف الفلاحون البنانى والبراميل أمام بيوتهم استعدادا للجمع ، وكان ناقوس الكنيسة يدق دقاعريضاً وسط سكون الوادى فيهز الهواء ويهز نفسينا ، نفسى طفلين لم يعودا

يجهلان الألم والموت . لم نجد جدتنا فى البيت عند ما عدنا بعد ذلك بأيام قلائل وألفينا سريرها مفكوكا وحشيتها مفرغة من ورق الذرة التى كان يملؤها ، ومريم منهمكة فى الغسيل . ثم أقبلت على والدتنا وهى أكثر شحوبا وصمتا مما كانت

كان « ارنلدو » فى عامه الحادى عشر فقد ولد فى ١١ يناير سنة ١٨٨٥ لسنتين من ولادتى ، ولم تستطع والدتى أن ترضعه لضعف قواها بعد مولدى فعهدت به إلى حضانة فلاحة من بيت « جيانى » القائم على مسافة كيلو متر من « ملدولا » على يمين النازل إلى «فورلى» . مازال ذلك البيت القروى قائما حتى اليوم ، ولكننى لا أعلم هل تقيم به نفس العائلة التى كانت بينها وبيننا قربى من طريق جدنا عن والدتنا لبيت « جيانى » هذا دور هام فى تاريخ حداثة ارنلدو وحداثتى ، فقد أقام فيه هو بضع سنين وأختلف منه إلى مدارس « ملدولا » الأولية . وكنا نسير اليه بعد ذلك معا كل عام فى آخر أحد من أغسطس لمناسبة تشدين عذراء الشعب المشهورة وننزل يوما أو يومين على عائلة «جيانى» كضيفين أو « كقريبين » كما يقولون فى « رومانيا »

كانت والدتنا ترافقنا أحيانا فى هذه النزهة ولكننا كنا نذهب غالباً وحيدين وعلى الأقدام . فكنا نسير من « دوفيا » فى الساعات الأولى من عصر السبت ، وعلينا ثياب الأحد ، ولا زلت أذكر ان الحاكة كانوا يعملون حينئذ فى منازل زبائنهم ،

وكنا نصعد سريعين فى المنعطفات التى لا تزال قائمة حتى اليوم ثم فى التل الذى تشرف عليه صخرة « كميناتى » . وهنا كنا نقف دائما ونتأمل من جديد فى منظر السهل ثم نهبط ملدولا من الطريق القروى ونشاهد « الروكى » القديمة التى كانت تؤثر فى نفسينا دائما تأثيرا عميقا . كان أولاد بيت جيانى وهم أبناء خؤولة بعيدة لنا يرحبون بنا فى منزلهم بمودة خاصة وكنا نسير معهم فى الحقول ونبحث عن تباشير حب العنب الناضج أو نقف خلف مخازن التبن ونتأمل بدهشة البطنين صف رمان بجانبها بينما يغص الجرن بعربات كثيرة تأتى بفروع أخرى من العائلة، حتى إذا ما كان اليوم التالى ، يوم الأحد ، ذهبنا جميعا إلى القداس فى كنيسة العذراء واستمعنا إلى عزف موسيقى البلدة التى مازلت أذكر أحد ألحانها من تأليف روسينى . ثم سرنا عند حلول الساعة الحادية عشرة فى الطريق العامة ، وهى تعج بالحركة والجلبة وروائح المطابخ المتعددة المقامة فى العراء ، وذهبنا إلى السوق فيما وراء القناة لنشهد الراقصين فى الهواء الطلق . كانت التخوت تتألف حينئذ من منفاخ واحد أحيانا ، ولكن أشهر تخوت « رومانيا » كانت تبهج القلوب فى سنوات الجمع الجزيل مثل « زنجيرى ملدولا » و « زكلين تشرينا » و « اعمى ترانورا » وهما عازفان ماهران جدا على الكمان . وكنا نجتمع إذا ما حل الظهر على عرض الطريق المغبرة . إذ لم تكن السيارات والأسفلت

معروفة حينئذ ونجلس إلى المائدة وعليها أطعمة ونبذ وفيرة ، ثم نعود من جديد إلى المدينة فى الساعة الرابعة لنتمتع بأجمل مناظر النهار وقعا فى نفوسنا ، مثل سباق الخيل من محطة الترام إلى مرتفع بيولا ، أى على كل الطريق (الترام البلجيكى العادى الذى خلفته السيارات الآن). لا زلت أذكر غوغاء الجمهور الذى كان يفسح للخيل قبل مرورها ببضعة أمتار ، فيثير دهشتى . وأذكر شرر حدائدها وقرقعتها على بلاط الطريق ورجوع الحصان الفائز ظافرا ، ثم ما يعقب ذلك من رقص وشرب وغناء يستمر حتى صلاة العشاء .

كان منظر السواريخ أكثر مناظر المساء استهواء وبهرا لى حينئذ فقد كانت عدد الألعاب النارية تنصب فى الميدان الرئيسى بجانب ثكنة البوليس فيحيط بها جمع غفير يعقب بصيحات الحبور اندلاع نيرانها وانفجار الألغام العاطرة الذى كان يتخللها ثم اشتعال الصحبة الرئيسية التى كانت تتوج المنظر وتستمر طويلا فى ألوان عدة يتوسطها اسم مريم العذراء الذى كان يؤثر على الحشد ويعود بهم إلى غاية العيد الدينية بعد لهو النهار وشربه واستهتاره .

كان الميدان يعود بعد ذلك الى الظلام . وكنا نحن نقفل على الاقدام إلى بيت جيانى معلقين على ما رأينا . وكان لو يجى قريننا يحاجينا قبل أن ننام ، وفى اليوم التالى كنا نعود إلى دوفيا

من نفس طريق المجيء ونقص تفاصيل ذلك العيد - في شيء من التعب والذهول - على أصدقائنا وهم : دوناتو امادوري ، من بونتيرولا ، وروموالدي فلزانيا ، وكبانئيو . وقد مات هذا الأخير وآخرون أصغر منهم سنا .

كنت أنام وقتئذ مع ارنلدو في غرفة واحدة وسرير حديدي واحد من صنع والدي وعلى جوال محشو بورق الذرة فما كانت لنا حشية سواه . وكانت شقتنا تتألف من غرفتين في الطابق الثاني من وكالة « فارادو » ، ندخلهما من الغرفة الثالثة وهي مدرسة والدتي . كانوا يستنفعون بغرفتنا كمطبخ . وكان بجانب فراشنا صوان من خشب أحمر يحوي ثيابنا وأمامه قمطر مقوس غاص بكتب وجرائد قديمة كنت أتصفحها أنا وارنلدو في هذه الغرفة . قرأت القصائد والمجلات الأولى مثل « العصر » الذي كان يصدر حينئذ في جنوفا وبين هذه الأدراج قمت يوما باكتشاف ملأني فضولا ودهشة وتأثرا ، فقد عثرت على خطابات الغرام التي كان والدي يكتبها إلى والدتي وقرأت بعضها. كانت نافذتنا أمام السرير وكنا نرى منها « ربي » والتلال والقمر وهو يطل من خلف فردينانو . وكانت على الجانب الثاني لسريرنا قصعة العجين وعلى قرب منها الموقدة وهي تكاد تكون خامدة دائما . كان والدي ووالدتي وادفيجانيامون في الغرفة الأخرى ، وبها أثاث يتألف من صندوق كبير وصوان ضخم من الخشب

الأبيض تبدو للعيان من فوقه تسعة ملفات من القماش لثيابنا ، كانت والدتى تفخر بها وتغار عليها بنوع خاص ، ثم مائدة وسط كنت أدرس عليها . وقد طالعت عليها بعد ذلك بقليل مطالعاتى الأولى العامة من « أخلاق الواقعين » « لربرتو ارديجو » المنتشر حينئذ إلى « تاريخ الفلسفة » « لفيورنتينو » ومن « بؤساء » « هوجو » الى قصائد « المنزونى »

كان ارنلدو يرافقنى فى لعبى ووقائعى خصوصا فى الصيف . أما فى الشتاء فكنا نقاسى البرد فى بيتنا المدخن ، ولا نلهو بعض اللهو إلا بالثلج . كان البؤس حولنا بالغاً أشده وكانت الناس تقرضنا الخبز والزيت والملح . وكان العمال اذا ما اشتغلوا نالوا ٢٨ سولدى عن نهار بأسره وكنا نرى احداثا ظلت مطبوعة فى ذاكرتنا وذكرتها أنا لارنلدو غير مرة فيما بعد . ومن بينها رحيل المسافرين إلى البرازيل . مناظر تؤثر ودموع . لازلت أذكر منها نزول المسافرين مساء من السلم المضاء إضاءة رديئة بمصابيح البترول ، وقد أثقلت الاجولة الضخمة أكتافهم وأخذ أقاربهم يصيحون عليهم من الشرفة مودعين . لم تعد أغلبية هؤلاء المهاجرين وكثير منهم من مات فى مزارع بناس جريس .

كان الصيف فصلنا المحبوب فقد كانت دراستنا تنتهى فيه وكانت والدتنا تخلى قاعة مدرستها لتستقبل القمح قبل أن تدرسه الآلة التى كان والدى أول من اشتراها ، وكنا نحن نسعى فى أثر

الأوكار والفواكه ونترصد تباشير الأثمار الناضجة على الغصون ونسير إلى النهر سيرنا إلى غرضنا المفضل. كان ارنلدو ينم عن طبيعته منذئذ، فقد كان أهدأ وأطيب منى بكثير جداً ولا أذكر أنه تسبب مرة فى مشاجرة واحدة بينما كانت ألعابى أنا مع رفاقى تنتهى بمصارعات لا رفق فيها. كان ساكناً حليماً. وكان يجالسنى وينصحنى ويعاوننى فى الاصلاح من شأنى حتى أتقدم إلى والدنا من غير أن تصبنى صفعلته. إننى أكتب هـذه السطور وأنا أتخيل النهر والسيل والطريق والبيوت وبرج سان كسينو وأقرانى والمرتفع الذى كان يصعد من الطريق القروية الى «فارانو» ثم جامعات الصيف وألعاب الورق الشتوية على طريق «تشيرتيو» تلك الألعاب التى لم تكن تنتهى والتى لم نكن نكف عنها إلا عند وصول الصحف المزدانة بصور حرب افريقيا. فذكريات حداثتى مرتبطة بأسماء مكالا وتوزلى وتاتيو وامباالاجى والقائم مقام جليانو.

كنا نتغنى حينئذ بأغان تصلنا من بعيد وقد نجمت عن أحداث دموية أثرت فى نفوس الشعب. كانت هذه الأغانى من لحن واحد غالبا. وكان الفلاحون يتغنون بها بصوت طلق فى أسواق الاثنين بفورلى والثلاثاء بملدولا والخميس بفورليمبوبول والسبت بتشزينا ويحفظونها ويفشونها فى القرى، وكانت إحداها تدور حول مقتل غيرة وقع فى «فورنى» ومطلعها :

كان فى كفر « رفلدينو » الذى يسكنه غليوم المسكين . . .

غليوم فازى حلاق قتـله منافسة على باب حانوته بطعنة من سـكينة . كنت أنا وارنلدو نتغنى بهذه الأغانى وكنا نتأثر للموسيقى تأثراً شديدا .وكنا نحب الرقص ونعجب أيضا بالفتيات من سننا فنعود معهن غالبا إلى بيتنا بعد تدشين خورياتنا القروية ولكن ارنلدو لم يكن على شىء من تهورى فى هذا الميدان أيضا كان أكثر هيبة ورقة ولا يزال أهل « بولا » يذكرون شغفه الشديد النقى وهو لا يزال مراهقا بشابة صغيرة ماتت بمرض عضال فألم لها ارنلدو ألماً شديدا . ورأته الناس يوم حملها إلى المقبرة — يتبعها موكب طويل من فتيات لابسات البياض — وهو يجول على المرتفعات بين بيوت « يتوبلر وسودى »ويبكى قانطا كما لو انقطع كل سبب بينه وبين الحياة . ولا تزال نسوة « برديبو » القديمة يتأثرون لهذه الذكرى حتى اليوم

يشير موسولينى بعد ذلك الى اعلان الحرب العظمى واشتراك أخيه فيها ثم ينقل بعض مذكراته ومنها :

٢٨ يناير — اتى ابلو الحيـاة العسكرية وأحاول أن أعيم بحذافيرها . الواقع أن الحياة العسكرية ، اذا أحسنت ، تمطل الشخصية وتنبه فى أغلبية الناس الفطنة والارادة والنشاط

إن النظام والترتيت والاحترام والعمل المستمر قوى حيوية يجب أن يستغلها الانسان

وتنتهي الحرب ويعود ارنلدو لمساعدة شقيقه في حياته السياسية الجديدة واذ بأكبر أنجاله بمرض فجأة ثم يموت :

بدأ قلب ارنلدو يتحطم أثر موت ولده وأخذ الموت يدب اليه منذ ذلك اليوم وهكذا حتى أواخر عام سنة ١٩٢٩ . ونزلت عليه فى ربيع ١٩٣٠ فوجدت ولده قائماً ولكنه كان أكثر هزالا منه فى سابق أيام حياته وشعرت فى داره الجديدة بجو قلق وانشغال إذ كان الموت جاثما فى جميع أنحائها

ويصف موسوليني حالة أخيه بعد الوفاة فيقول :

دعوته لزيارتى فى روما فلبى الدعوة ونزل على ضيفا فى داره « تورلونيا » خلال ذلك الشهر الأخير من الصيف فاصطحبته غير مرة إلى البحر وانتقلت عائلته بأجمعها الى روما فى الخريف ثم أصابه المصاب الأكبر أثناء الألم وبعده . ولم لا أصرح بهذا ؟

لقد أصاب الفاشية الميلانية بين صيف ١٩٣٠ وخريفها وبعد التطهير اللازم شىء من الفضيحة فسر أعداؤها وانتصر أتباع « كاتونا » ولكن هل يعلم الايطاليون من كان الاخلاقى « كاتونا » ؟

لقد كان لهذا الثعلب قصد ظاهر فمن لم يكن يملك الملايين حينئذ أن وصية ارنلدو المنشورة بتمامها فى هذا الكتاب حتى ما يتعلق منها بشؤونه الخاصة أو المادية صفعة شاملة لكاتونى البارحة وبعض ثعالب اليوم . الملايين ! لقد قلبنا كل شىء وفتحنا

جميع الأدراج بما فيها الخزانة الحديدية فوجدنا — كما هى فى الواقع وكما يستطيعوا الذين أجروا البحث أن يشهدوا بها — ١٣٠٠٠٠ ليرة — مائة وثلاثين الف ليرة . هذه هى الأموال النقدية . أما العقار فيقتصر على شقة يدفع إيجارها أقساطا فى منزل مشترك !

القسم الثانى

بعـــــد الحرب

الصحفى والكاتب

وتنجح الثورة الفاشية فيترك موسوليني ادارة جريدته الى اخيه وينتقل الى روما ليعتلي الحكم :

وهكذا كنت أترك الجريدة التى أنشأتها والتى كنت أحبها حتى الكلف لأنها كانت الوسيلة التى حشدت بها إلى الحرب طبقات الشعب الايطالى المختلفة ، لأنهـا كانت فى أيام الحرب .. — ولا سيما بعد اكتوبر سنة ١٩١٣ — شعلة الرجاء للملايين من المقاتلين والايطاليين

كان تراثى — وأستطيع أن أجزم بهذا دون خجل أو تواضع زائف — تراثا ثقيلا على خليفتى مهما أوتى من مهارة صحفية وخبرة واسعة وهذا لسببين مهمين جداً :

أولا — لأننى كنت قد طبعت جريدتى عن طريق آلاف المقالات والعناوين والمذكرات والرسوم التى أوعزت بهـا ، بطابع مجادل ، محارب ، فى غير مهادنة ، وهذا الطابع من ملكاتى التى تبـدوالآن فى ميادين أخرى لمجادلات ومعـارك أشدخطورة . ثم اننى كنتقد عودتبضع مئاتمن الايطاليين على أسـلوبى وهو ابن فطرتى الطبيعى والشرعى ، ومن ثم لم أستطع يوما أن استره بأسماء مستعارة أو بوسائل أخرى .

وعودتهم على طريقتى فى الكتابة وهى نتيجة مالا يقل عن عشر سنين فى معارك صحفية سابقة بسويسرا والنمسا وفورلى وأوتليا وميلانو . فى صحف يومية وأسبوعية ومجلات ، عند ما صرت « شيئاً » فى الحركة الاشتراكية الايطالية قبل أن تميل بها الحرب إلى الزوال . .

ثانياً — لأن آخر اكتوبر سنة ١٩٢٢ كان يأتى معه بدء عهد جديد فى تاريخ ايطاليا ، عهد أصبحت فيه « شعب ايطاليا » جريدة النظام القائم ، وأوثق ألسنة حال الحكومة ، ولم يكن لأوضاع البارحة المهاجمة المجادلة أى مبرر للظهور بعد أن انتصرت الثورة . لقد استمرت بعض الأحزاب والجرائد المعارضة حتى سنة ١٩٢٦ ولكنها لم تكن جميعاً أكثر من أنين منفرد . ولم تكن حتى سنة ١٩٢٤ أكثر من قائمة كلمات جوفاء ضخمة . وجد ارنلدو لذلك نفسه أمام خطرين : خطر الرغبة فى تقليدى ، وهذا ما كنا لا نريده ، نظراً لتغير النظام الحكومى إذا أغضينا أيضاً عن شدة صعوبته . وخطر صبغ « الشعب الايطالى » بصبغة صفراء وتطعيمها بطعم إدارى ربما بعث خصومنا على البحث عنها ، ولكنه كان يبعدها عن الجماهير التى قامت بالثورة ، وهذا أمر لا يقل فداحة عن الأول

أدرك ارنلدو من أول وهلة ان قد كان عليه أن يصدر جريدة تكون تتمة جريدة البارحة المنطقية والتاريخية ، ولكن

بلهجة مختلفة ، أى بملاءمة الجو الجديد . وقد توقع الخبثاء الذين يقومون دائما على هوامش جميع الأعمال الانسانية اخفاقه ، وأفشوا فى السواد خلال الشهور الأولى اننى كنت أكتب المقالات بأسلوب أتعمد فيه اللين ، ولكن أحدا لم يصدق هذه الاشاعة ، وعندئذ ظنوا انى كنت أضع الرسم لارنلدو ، وأترك له انشاء العبارة . والحقيقة هى اننى أسديت ارنلدو فى الاسابيع الأولى نصائح ذات صبغة فنية أكثر منها سياسية ثم أرسلت اليه فيما بعد — بين الفينة والفينة — بعض مقالات فى مواضيع مخصوصة . كالمواضيع الشعبية عرفت الناس فيها سريعا بضاعتى القديمة ، وأخيرا تركت له الحرية المطلقة فى عمله الصحفى منذ ٢٤ فصاعدا .

يشير موسوليني بعد ذلك الى اسلوب اخيه فى الكتابة وهو كما وصفه بنفسه مبنى على : « إبعاد النعوت الرنانة ، وتشديد الاسلوب المقتضب مع ملاءمته للواقع ، وتنسيق النتائج مع قضاياها ، والتعبير عن الحياة العملية تعبيراً أمينا مطابقا للنظرية والمذهب الفاشستى ، والملاينة فى التحدث عن مبدأ الفاشسية الذى قدم ضحاياه ، وعن شعاره الذى يسمو على الجميع ، أما الأخبار فيجب ألا تخشى الكتابة فيها ، بل يجب أن تكون غنيه غزيرة حديثة ، تتعلق إن أمكن بأفضل طبقات الانسانية . بالطبقة التى تفكر وتحيى وتنتعش للاشياء الجميلة ، بالطبقة التى ترتفع إلى ما فوق

المستوى العادى وتحلق فى صفاء الافكار وأعمال الخيرات لا بحوادث الانتحار أو الحوادث الأخرى التى تتعلق بكائنات حيوانية ساقطة . »

ويختم موسولينى هذا الباب من كتابه بقوله : لقد استحق ارنلدو أن يكتب على قبره « صحفى الثورة » وصحفى بمواهب الصحفى الكبير . بسهولة الكتابة قبل كل شىء ، فالجريدة مقيدة بحياتها اليومية المؤقتة وبالتقلبات التى تقع يوميا فى العالم ، بأسلوب لا ينفك يضح ويتناسق ويصفو حتى ليستطيع أن يدخل بمقالات عديدة جدا فى أحسن مأثور النثر الايطالى ، وهو ظاهر دائما حتى فى المقالات الدائرة حول مواضيع عادية لضرورة الأشياء أو الجدل ، فهو زجر مؤدب وهو مجهود يرمى إلى ترقية القراء . وهذا هو ما يفسر لهجة محاجاته وانعدام الشخصيات الذى يكاد يكون تامافيها . تلك الشخصيات البغيضة على نفسه والتى كان فى وسعها أن تهبط بالمستوى الخلقى لأسن وأعظمهم صحفى النظام الحاضر .

كان ارنلدو يضع نصب عينيه دائما مسئوليته كمدير جريدة أسسها ـ لا أخوه ـ بل الرجل الذى كان فخوراً بطاعته كمرؤوس له . كان ينبغى لجريدته أن تكون جريدة أفكار وتربية ، وقد كانت . هناك أمر ثبيت نجاح الصحفى بطريقة لا تقبل التفنيد، وهو انتظار القراء لمقالته . وقد كانت مقالة ارنلدو منتظرة . كان

ينتظرها فى أول الأمر من كان يريد أن يرى فيها إيحائى . وكان ينتظرها بعد ذلك من كان يقدر قيمة مكتوبات ارنلدو الذاتية ومادتها وأسلوبها ولكن ارنلدو يبلغ أوجه خصوصاً بعدمأساة سندرينو فيرتقى من صفوف الصحافة إلى مصاف الكتاب . هذه ميزة لا ينالها إلا القليلون . فمن الصحفيين من لن يكونوا يوماً كتاباً ، ومن الكتاب من لن يسعهم أن يصيروا صحفيين لأن العمل الصحفى عموما مقيد لحد بعيد بالواقع لا يستطيع أن يقدم عليه سبحات الأدب . ولو انه لا شك فى ان الصحافة تستطيع أن تروض العقل كما يعد الملعب الرياضيين ، فيصير الصحفى كاتباً عندما ، يبطن نفسه ، عندما يبدأ يرى الأشياء لا فى هيئتها السينمائية الماثلة ولكن فى هيئتها المدلولية ، عندما يطرق برأسه ويفكر فى المسائل الأصلية عندما يحمله إلى القمة ألم قاس ، كما هو الأمر فى حال ارنلدو فيشعر بخلوص نفسه من الأغلال التى كانت تقيدها إلى البسيطة ويتنفس فى جو الاشياء اللانهائية الخالدة . فتنتهى صحافةالجريدة اليومية ويبدأ الشعر . شعر الحب والموت ، شعر الأمل والاستسلام ، شعر الحياة الدنيا وما بعدها من إغراء وأسوة .

ويثبت موسولينى صدق نظريته هذه بالمذكرات الاتية التى كتبها اخوه اثناء رحلة له فى ليبيا :

لقد رأيت الأرض هذا الصباح ضاحكة

واستنشقت رائحة الثرى الحديدية الشديدة
بعد أن لفحته الشمس . .
ورواه الغيث الخصب
لقد كانت الأشجار تبدو كأنها خارجة من حمام عيد إلى
وهج الشمس .
تمد فروعها وذراها وسيقانها نحو السماء
تحمد وتبارك سحب خفيفة جافلة
نحو أراض أخرى نائية
هكذا أود أن أستيقظ بغتة ذات صباح
فأشعر من نفسى خفة بعد أن أفقد ادران المادة
وأشعر فى نفسى قربا من الكائنات العزيزة بعد أن تخلص
روحى إلى البطاح الخالدة
فلا أصدق الشر ، وأبتهج صاعداً وأعانق فى قوة إخوتى
الذين يألمون ويأملون
وأعتقد فى القوة التى تسود ، والفكرة التى تضىء العالم
إننى أسمو بنفسى إلى الأعلى
سمو السيقان والاشجار نحو السماوات !
ولكن رغائب نفسى تجفل هى الأخرى مثل السحب نحو
بطاح نائية ،
أعانق اخوتى الذين يألمون ويأملون

هاهى الفكرة السائدة بين أفكار ارنلدو فى كل حياته وعلى الأخص فى أيامه الأخيرة

أيام مأساة . مأساة لا يستطيع أن يفهمها حق الفهم إلا « المعقبون » الذين لهم أبناء . يرفع موت سندرينو نفس ارنلدو إلى أوجها الكامل . فيلبس عندما يكتب عنه بعد سنة من ذلك ، فى كتاب أهداه إلى بعض المخلصين . يلبس فى صفحات ذلك الكتاب حد الجمال والعظمة القصوى . اننا نستطيع أن ندعو وسندعو هذا الكتاب الصغير الذى لا يستطيع أحد أن يقرأه دون أن يقاسمه ألمه باسم « نحيب الحب الابوى » اننى أظن أن ليس فى الأدب الايطالى كثير مما له ما يضارع هذه القوة المؤثرة ، ومثل هذا الشجن المسيحى العميق . فليس هذا الحوار بين الأب الحى وابنه الميت مؤثراً تأثيراًمدهشاً فى مادته فقط ، ولكنه تام وكامل الاسلوب تبدو فى أول صفحاته فكرة الخير « أبوك يكتب لك . اننى أرى فى الظل والسكون حركة تمنع منك لا تلمع . ولكننى أتغلب على أنفتك ، واتكلم عن حياتك المنيرة على الرغم من شدة قصرها . وليس يدفعنى إلى هذا زهوى الابوى المتألم الذى ضرب هذه الضربة القاسية ولا عزة نفسى التى طعنت وقوضت ودثرت ، ولكن خالص اقتناعى بواجب أعلى من ذلك . فاننى أشعر أنقد ينشأ ـ ويجب أن ينشأ ـ من ألمى هذا خير عظيم . أشعر ان فى وسع ألمى

الأبوى المغلق أن يصير نبع نعم وخيرات جزيلة !!

يقص ارنلدو بعد ذلك باجمال حياة سندرينو في أعوامه الأولى ويذكر تقلباته الهائلة بين قرار الأطباء الأول الصارم وما تلاه من آمال متجددة أعقبتها دائماً أمر الخيبات. وقد ابتدأ عذابه في ٣ أغسطس سنة ١٩٣٠. ولكن هاكم الصفحة التي تكلم فيها عن آخر أيام ولده. ها هو ذا في نبرات تكاد تكون غير دنيوية دعاؤه الذي لم يستجب.

« سجدت حينئذ وقلت: إلهي، انقذ سندرينو، فهو صالح، طاهر. لم يقل يوماً كلمة جارحة، ولم يهمل شرائعك، لقد أحب أبويه ومعلميه، رفقاءه وجيرانه. ولم يتقهقر أمام أية صعوبة كائنة ما كانت. لقد كان تواضعه دائماً كريماً أنفا. لقد أحب الوضعاء. ولم يقترف يوماً ذنبا. أنقذ سندرينو يا إلهي فهو عماد الغد وشرف بيتنا وخيره. لقد دعاه عرافه قديساً. خذني يا إلهي، ان وجدت ذنوباً ينبغي أن تكفر، كفني، شوهني، شلني اقبضني إن رأيت في موتي رحمة ولكن أنقذ سندرينو. لقد عشت طويلا وهو لم يتعد العشرين. لقد شهقت أخته الصغيرة هذا الصباح ببكاء شديد أمام صورة المسيح! واعتكف أخوه فيتو في ألمه القاتم فأقلقنا جميعاً. أنقذ سندرينو لهم ولأمهم أيضا، أنقذه لجميع الذين يسألونك رحمتك، للأبرياء الذين يدعونك، لجميع الذين يرفعون نحوك الأمنيات والنذور من مختلف أنحاء

ايطاليا . أنقذ بنى يا إلهى أنه سيحترم قانونك الالهى وقانون بنى الانسان الأخلاقى . بيد أننى شعرت أن دعائى لن يستجاب وبزغت الشمس تتألق صباح الأربعاء ٢٠ أغسطس ولكننى رأيت فى سرعة وتأثر سحابة سوداء فى الأفق بينما قال لى الطبيب «أنه يموت ولا يتألم».

ويقص الأب على ابنه الميت أطوار نزعه فى صفحات تقشعر منها الأبدان ثم يصف له جنازته ودفنه فى بدرنو .

«ولكنك تريد أن ينبعث من تلك المقبرة البسيطة نور دائم ، نور أيمان وخير ، يجب أن يتحول ألمك بأسره الى أعمال خيرية . فلعل الله أذن من أجل هذا فقط بهذه المأساة التى قصفت حياتى».

ولقد رأيت أنا الذى حضرت أيام المرض الأخيرة ووصلت الصباح التالى للوفاة ورأيت سندرينو راقداً ، بارداً ، هادئاً ـ بينما كانت الشمس تلهب الحقول والبحر والدور الصامتة ـ أنا الذى عانقت أرنلدو المتهضم ، المتغير ، الغائب ، البعيد ، رأيت أن مصيبته لادواء لها وأن كلمات العزاء لن تجدى شيئاً وأنه ليس بينه وبين الحياة سبب ما . ليس بينه وبينها أى سبب لأنه كان يتلهف للحاق بابنه المفقود ويثق من اللحاق به .

ويشير موسولينى الى بعض خطب أخيه ثم يقول

ولكن أرنلدو يرتفع الى هجير حريته التامة وقوته العقلية

والروحية على الأخص فى نشاطه الصحفى منذ سنة ١٩٣٠ وفى الخطب التى ألقاها فى الأشهر الأخيرة من هذه السنة. فلا يعود أحد حتى أكثر خصومه مكراً أو أشدهم خبثاً ـ يصدق أقصوصة أرنلدو ـ مترجم بسيط ومذيع ـ مكبر صوت الزعيم .

ويصير أرنلدو شيئاً . يصير غير قابل لللبسة . كونه الدرس والخبرة . وقواه الألم ثم رفعه وقاده الى أرفع الأفكار وأعمقها انسانية . فيخلب أرنلدو لب الشعب الذى يسمع له ويمتلك حواسه فى خطبة « فاريزى » فى نوفمبر وعلى الأخص فى خطبة ديسمبر ، وهى الخطبة التى ألقاها فى مدرسة « الفلسفة الفاشية » فى ميلانو ويؤثر على من يراه تأثير رجل عاش وألم طويلا حتى ليستطيع أن يقول ـ بضمير هادىء ـ الكلمات التى من شأنها أن تربى وتحفز الأجيال الجديدة . وهى كلمات كالآتية خليقة بأن تحفر على جدر قاعات المدارس والملاعب ومراكز الحزب :

«يجب أن تحتقروا الحياة البسيطة ، ألا تسقطوا فى السفالة ، أن تعتقدوا فى الخير اعتقاداً ثابتاً . أنكم سوف تكونون حينئذ أقوى نفوساً أمام ويلات الحياة التى لا مناص منها. وستشعرون اذا قرع الألم بابكم أن نفوسكم مستعدة لمجابهة تقلبات الحياة . فلتقربوا الحقيقة منكم دائماً ، ولتعتمدوا على الخير الكريم اعتمادكم على الخل الوفى . فان مثل الشعور الدائم بالشباب وبامتلاء النفس بهذه الحقائق العليا كمثل التمتع بنعم سماوية . بهذه الطريقة فقط

تستطيعون أن تكونوا مستعدين للحياة فى رفعة والموت فى رفعة »

ألم يسمع شباب مدرسة الفلسفة المستمعون ، فى هذه الكلمات، مثل نذير وفاة على الأبواب ؟

هذا هو الأثر الذى تركه أرنلدو فى نفسى حينما رأيته آخر مرة فى روما . وكان قد نزل على من جديد فى نوفمبر المنصرم فكتبت فى يوميتى بتاريخ ٩ هذه المذكرة وفيها هذه النبوءة :

أخى أرنلدو لايزال يألم ألماً شديداً وأنا أتألم كلما فكرت فيه . أنه يبدو لى أحياناً وكأنه مستغرق فى ألمه ، غير مكترث بالعالم . ألقى أرنلدو آخر خطبة ـ والنبوءة هنا أوضح من ذى قبل ـ حتى لتكاد تجعل منها خطبة عشية الوفاة قبل أن يتردى بأربع وعشرين ساعة فأطرى مرة أخرى على التعاون بين الضعفاء ومعهم وحث على عمل الخير . وهذه الكلمات الأخيرة ترتبط بنص الوصية الروحية التى قرأها الايطاليون وتأثروا لها تأثراً عميقاً رغم انحطاط هذا العصر الاخلاقى وبؤسه المادى ورغم الزندقة والأثرة التى يكثر ستر أصحابها لها أو يقل .

انى بعيد كل البعد ، بعد مطالعتى هـذه الأيام للمكتوبات الأخيرة وللخطب التى ألقاها أرنلدو خلال تسع سنين ـ عن تقرير نبوغ جميع ماخرج من يراعه . جميعه . كلا . جميعه قد يكون مستحيلا . فجهد الصحافة سريع لا يستطيع الانسان أن ينال معه كل يوم قطعة نادرة ولو صغيرة وأكبر القصائد نفسها

ليست رائعة فى كل أبياتها . ومن الشعراء من مر الى الخلف برجز صغير ومن الكتاب من برواية واحدة . ولكننا لو فرضنا أن لجنة من النقاد المتطرفين انتقدت مقالات أرنلدو الألف وخطبه المائة نقداً شديداً فانى أظن أنه سوف يبقى منها ما يكفى لاثبات حكمى ، الذى لم يمله حب الأخوى، وهو أن أرنلدو كان حتى الآن صحفى ثورة القمصان السود الكبير الذى لم يفقه أحد . وأن أرنلدو لم ينس يوماً حتى فى أصغر المقالات وفى النبذ وفى التعليق على الأخبار وفى كل ما يمثل الجزء التافه من الصحافة ، لم ينس اللهجة المؤدبة ، تلك اللهجة التى ترفع من قدر المهنة وتجعل منها شيئاً مختلفاً اختلافا جوهريا عن مجرد التجارة فى أخبار وورق مطبوع .

الشـــقيق والرجل

يأتى موسولينى بعد ذلك على بعض خطابات أخيه ثم يقول :

لا يمثل كل ما نقلته هنا إلا جزءا ضئيلا جداً من المعونة التى قدمها ارنلدو لى . هذه المعونة التى سرت فى أشكال عديدة أخرى لا فى ميلانو فقط ، بل فى روما أيضاً ، لا فى إيطاليا فقط بل فى المستعمرات ، لا فى الميدان السياسى المحدود ، بل فى الميدان الاقتصادى والمعنوى أيضاً . ولقد يستطيع رجل السياسة أن يشك فى أكثر أعوانه أمانة ، وأن يرى حتى جحود ابنه له . ولكن الأخ ثقة . ولكن ارنلدو كان النفس التى كنت أستطيع أن ألجأ اليها بنفسى من حين لآخر فأجد فيها بضع لحظات من هدوء مار . هى اللحظات التى كنا نتثنى فيها على قبر والدتنا فى سان كسيانو أو نجتمع فى ٢٩ يوليو من كل سنة بمناسبة عيد ميلادى ، أو نصعد إلى روكى الكميناتى لننظر من أعلاها إلى الأمكنة التى قضينا بينها خير أوقات فتوتنا ، ثم ينظر كل منا إلى عينى أخيه فى صمت ونفكر معاً فى ذلك الوقت الخلى السعيد الذى كان يحمل لنا فى صدره مصيرنا القاسى .

ويشير الى المعاونات السياسية التى قدمها اليه أخوه الى ان يقول:

أنضج الألم ارنلدو قبل أن يقتله . فكانت تتخلل مقابلاتنا

ومحادثاتنا فى الايام الاخيرة لحظات صمت طويلة . وكنا نجول فى مماشى دار «تولورينا» دون أن ننبس ببنت شفة. ولكننا كنا نفكر فى نفس الفكرة فكرة« سندرينو» فكنت أريد ان اقول له وأقول له أحياناً تشجع . خفض عنك ، وقد كانت رحلته إلى ليبيا بأمر منى تقريباً . ولكننى لم أكثر فى الالحاح عليه خوفا من أن أبدو له وكا نى قد نسيت عذابه الداخلى الذى لا دواء له. ومر عيد الميلاد فاقترحت عليه رحلة فى البلاد البلقانية ولكننى لم أكن أخدع نفسى بنتائجها . فقد كان يعيش فى حياة أخرى ولم تكن الحياة التى يحياها معى ومع الآخرين إلا حياة عكسية ، حياة انتظار لا غير .

والآن تزدحم فى رأسى الأسئلة عن أسباب المحتم القاسية فكل منا مراد على أن يخدع نفسه بأن مجرى الأشياء قد كان يكون غير ما كان لو ان أطباءه أمروه بالراحة ، لو لم يقف هو يوم الأحد السابق لوفاته ساعتين بلا حراك فى جو مثلج ليشاهد دورة « كرة قدم » ، لو أخبرت أنا بالمنغصات التى ألمت به فى أيامه الأخيرة ولو لم يأمر هو بنفسه سكرتاريه بأن لا يبلغونى شيئا عن عيادات الاطباء له . فى استطاعة الاحتمالات أن تتعدد أيضاً : ولكن الحقيقة هى ان أعضاء ارنلدو الحيوية تحطمت منذ ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢٨ ، ثم استمرت بقوة الدفع إلى ما بعد ذلك بسنتين . فكان الموت أرفق به من الحياة بعد

الألم الشديد . وأخذه بغتة وحمله إلى العالم الآخر ـ فى لحظة ـ دون أن يعذبه .

كان ارنلدو طيبا ، فضيلة الطيبة فطرية فيه ، طيبا وهذا لا يعنى ضعيفاً فان الطيبة تستطيع كل الاستطاعة أن تتفق وأشد قوى النفس وأصلب الميول الى القيام بالواجب الشخصى . ليست الطيبة مسألة خلق فقط ، فهى مسألة تربية أيضا . ثم انها — فى سنين النضوج — نتيجة تصور العالم ، تصور تظهر فيه العناصر المتفائلة على العناصر المتشائمة . لأن الطيبة لا تستطيع أن تكون شاكة ويجب أن تكون دينة . لذلك كان هذا النوع الثلاثى من العناصر يحمل ارنلدو على الطيبة ، فلم يدفعه اليها يوما أى حساب سياسى أو أى تلمس للشعبية . فقد كان عمل طيبته متحفظاً شديد التحفظ . كان يرجو ألا يفشوا أعماله ، ويضرع ـ وخصوصاً فى أيامه الأخيرة ـ أن ينجزوا كل شىء فى سكون انى أشعر اليوم فقط ، من الخطابات التى تصلنى ، بأثر المدى الذى اتخذه هذا الاحسان ، الذى لم يكن من النوع المادى فقط فان مثل الجريدة كمثل شاطىء محيط تدفع الأمواج الهائجة اليه قليلا قليلا كل من استعصت عليهم مشكلة الحياة وكل من آلمتهم إيلاما لا تعرف فيه هوادة ، وفى وسع الانسان أن يكون طيباً بتقديمه مساعدة أو باهتمامه بمركز أو بعثوره على مأوى أو بمجرد قوله كلمة طيبة أو بتوجيهه لوما صارما . فكينونة الطيبة تعنى

أن يقوم الانسان بالطيب من الأمور من غير ابواق الاذاعة دون أمل فى الجزاء حتى الالهى منه . الدأب على الطيبة كل الحياة. هذه فضيلة تعطى مقياس العظمة الحقة فى نفس من النفوس ! الدأب على الطيبة رغم كل شيء ، رغم الخدع التى ينصبها الخبثاء لسلام الطوية ، رغم جحود المنة والنسيان ، رغم عدم مبالاة المثقفين . ها هى قمة كمال أدنى يصل اليها القليلون ويلازمها القليلون جدا ! الرجل الطيب لا يسأل نفسه يوما هل يستحق عمله تعبه ؟ ويظن أنه يستحقه دائما ، فساعدة المصاب حتى لو لم يستحق ، وتجفيف الدمعة حتى الدنسة ، والتفريج عن البؤس والتـأميل للحزن ، والتعزية للموت ، وكل ما يعنى ان النفس لا تعتقد انها غريبة عن الانسانية وانها تشترك فيها ـ لحما ودما ـ يعتبر نسـجاً لأهاب المحبة بخيوط لاترى ولـكنها قوية تربط الأرواح وترقيها . لعمل هذه الفضيلة كرس ارنلدو كل نفسه بعد وفاة سندرو . فهو لم يفكر بعد ذلك غير فكرة واحدة ولم يعزم على غير أمر واحد . الاحسان لتكريم ذكرى ابنه . الاحسان للجميع ، اصدقاء وغرباء وأعداء أيضا. لالشخصه . ـ فلعله لم يعاد احدا ـ بقدر ماكانوا لزمننا وظفرنا . لقد كان بعيدا جدا عن أن يقصد ماأرى الآن ولكن لامحل للشك فى أن عمله هذا كان يفيد الفاشية أيضا .

كانت الفاشية تتخذ به شكلا آخر ، ولا تقتصر على شكل

الثورة الشديد ضرورة . كان النظام الفاشى « يتبشر » بعمله كان الحساب السياسى يترك مكانه لدافع القلب . ولم لايجرى شريان الطيبة فى صحراء السياسة المجدبة – ولو مستترا – ولكن فى صفاء وافادة ؟ – ألم يخفف الأقوياء دائما وفى كل عصر من شدة القوة بعمل الطيب . ؟ ولكن ارنلدو لم يشأ يوماأن يكون « قويا » كان يشعر بنفسه شعور المرؤوس والرجل « الوضيع » . فهذه الكلمة الانجيلية تطفر فى وصيته طفرا ! ألم يكن ارنلدو يتحدث عن الوضعاء فى خطبته الأخيرة ايضا — ٢٠ ديسمبر — قبل أن يكف قلبه عن الخفقان باربع وعشرون ساعة الم يكن الحشد الذى لايحصى والذى اجتمع خلف تابوته دليلا على أن نفس الشعب تحترم القوة ولكنها تحب الطيبة ؟ فضيلة الطيبة تأتى معها بسجية أخرى هى سجية العفو . وقد كان ارنلدو يعفو حتى – وقبل كل شىء – عن الذين نغصوا عليه عيشه . وكانت تدفعه إلى ذلك عقائده الدينية الدائمة العميقة . فقد كان دينا . ولكنه لم يكن يؤمن كما قال بنفسه فى آخر محاضراته بمدرسة الفلسفة الفاشية

« بالآه يدعى أحيانا ، لتصغيره ، باللانهاية أو الخليقة أو الكينونة ، ولكن بالله مولانا خالق السموات والأرض ، وابنه الذى سوف يجزى فى الممالك السماوية يومافضائلنا القليلة ويغفر لنا نقائصنا العديدة الملازمة لتقلباتنا الدنيوية »

ووصيته الروحية،وهى من سنة١٩٢٨ ، تشتمل على اعتراف

بتدين لا يقل عن هذا رفعة وصراحة . وقد رافقته هذه العقيدة
في كل حياته . فلم تكن إذا بالعقيدة التى تأتى فى ساعة الشفق
عند ما تضنى الأرض بنى الانسان أو تخدعهم فيذ كرون السماء
ولكنها كانت عقيدة الحداثة الأولى . ثم عقيدة كل الحياة .
الاحسان باسم سندرينو ، هذاماكان يبغيه ارنلدو بعد أغسطس
١٩٣٠ المشئوم . وقد كان بين الأوراق التى وجدتها فى مكتبته
بقصر مرغريتا نسخة جيب من « العهد القديم » وورقة صغيرة
مكتوبة بخطه تقول : « أنظر مزمور ١٣٠ »

والمزمور ١٣٠ هو نشيد « الحجيج » ويقول :

من الأعماق صرخت إليك يارب
يارب استمع صوتى
لتكن أذناك منصتتان
إلى صوت تضرعى !

ويقدم موسوليني بعد ذلك وصية ارنلدو :

هاهى وصية ارنلدو فى صيغتها الكاملة كما ظهرت . لاحدى
تلك الصدف القاسية التى يلتذ القدر غالبا بضمها إلى مآسى الحياة
فى كل جرائد إيطاليا ـ ما عدا « شعب إيطاليا » ـ بعد أن بتر
منها الجزء السياسى والفاشى الرفيع . وقد أردت أن أحتفظ
بالجزء الأخير منها ـ أعنى الجزء الخاص ـ إلى حين آخر . لقد
قرأ آلاف من القراء هذه الوصية وقليل منهم على ما أظن من

استطاع أن يتجنب الأثر النبيل المؤثر الذى ينبثق من نصها ـ وهو نص مرتبط بحالة نفسية وبعقائد دينية عميقة لا بأحداث من نوع خارجي . ومصير وصية ارنلدو ـ مصير لم ينجم فى غالب ظنى ـ إلا عن اضطرابنا والمنا جميعاً فى تلك الايام يحملنى على التصريح منذ الآن . لأن وفاتى أنا أيضاً قد لا تكون أقل فجأةمن وفاه ارنلدو . انى لم أكتب ولن أكتب وصيات من أى نوع كان ، لا روحية ولا سياسية ولا خاصة . لذلك من العبث أن يبحث عنها وليس لى غير رغبة واحدة ، هى أن أدفن بالقرب من ذوى قربتى فى مقبرة «سان كسينو ». ولعلنى أكون سذجا جدا لو طلبت أن أترك فى سلام بعدموتى . فمن المستحيل أن يستقر السلام حول مقابر رؤساء تلك الانقلابات العظيمة التى تدعى بالثورات ، ولكن أحدا لن يستطيع أن يمحو كل ما قمت به بينما ستحيي روحى بعد خلاصها من المادة ، وبعد هذه الحياة الدنيوية الضئيلة ، من حياة الله الأبدية اللانهائية .

الوداع

ثم ينتهي الكتاب بالفصل الآتي

لقد بلغت النهاية ، وقرأت كل ما كتبت وها أنا ذا أسمع صوتاً يسألني : ترى هل تريدون أن ندفن ارنلدو موسوليني في البنتئون الذي يخصصه الوطن للخالدين ؟

كلا . فتل بدرنو الوعر الذي لم يكن يستطيع الانسان أن يصل اليه حتى البارحة تقريباً ، ليس بالبنتئون . لقد ترك لنا ارنلدو في وصيته مقياس نفسه ، ولئن لم نحترم رغباته الاحترام التام فمن الواجب ان نتلمس سبب ذلك في حركة غريزية من شعب ربما كان ابعاده أو اهانته شيئاً مؤلماً جداً .

لقد كتب لنا في وصيته :

« لا تطيلوا موكبي ، اقتصدوا في تأبيني ولا تسرفوا فيه » .

وانا افهم عن روحه . وأعلم انه ربما كان أول من يحتج لو اراد احد ان يرفعه إلى قمم الابطال والأنبياء أو القديسين . فلعله بلغ شيئاً من القداسة عن طريق الألم الطويل . ولكن الايطاليين ـ لا الفاشيستين وحدهم ـ يكرمونه وسوف يذكرونه لانه كان شيئاً ، لأنه خدم النظام الحاضر والوطن في عمله الصحفي والكتابي خدمة لا تقدر ، لأنه لم يتطلع لشيء ، ولم يستغل اسمه للارتقاء في سرعة ، ولأنه لم يصعد قليلا قليلا إلى الأعلى

بين شخصيات الطبقة الأولى من النظام الفاشستى إلا بعمله وعقيدته وطاعته لفكرته . لقد تألمت وسوف أتألم طويلا لموته فبتر الروح كبتر الجسد لا دواء له . انني أشعر بألمى لذهاب ارنلدو كما أشعر بنار خفية سوف ترافقنى دائماً . نار تغذى ارادتى وإيمانى ، انني سأحمل له حمله هو أيضا ، كيلا يندثر كل عمله وعاطفته وأمله ، كى تكرم ذكراه ، كى تنتصر المثل التى آمن بها وتدوم ، حتى وقبل كل شيء فيما بعد حياتى .

حياة سندرو موسوليني

بقلم والده ارنلدو

وضع ارنلدو موسوليني هذا الكتاب عن حياة ولده اثر وفاته. وقد رأيت أن اقتطف منه أبوابا تكفي للدلالة على أن القيام بالواجب القومي حتى عن طريق الثورات العنيفة لا يتنافى مع الشعور بأسمى العواطف الانسانية وأعمقها وان كان يحمل أحيانا على تضحيتها وكبتها في سبيل المثل العليا وان الحب العائلي هو الاساس الاول لكل دولة قوية :

أبوك يكتب اليك. إنني أرى في الظلام والسكون حركة تمنع منك لا تلمح فبودك حتى في الحياة الأخرى أن تحيط نفسك بالسكون وأن تبتعد باسمك عن الشهرة، بل لعلك لا زلت تحب وحدتك المعتكفة ولا زلت تكره أن يعلم الناس عن حياتك وأعمالك المتواضعة شيئاً، هذه الحياة التي لا يمنعها قصرها من أن تكون عظيمة في نبلها وإيمانها.

ولكنني أتغلب على أنفتك وأكتب عن حياتك القصيرة الطاهرة ولا يدفعني إلى ذلك زهوى الأبوي المكلوم الذي نزلت به هذه المصيبة القاسية ولا عزة نفسي التي طعنت وقوضت ودثرت بل مجرد قيامي بواجب اسمي. إنني أشعر أن جميع هذا الألم يستطيع بل ويجب أن ينتج خيراً عظيما. أشعر أن في استطاعة عذابي الأبوي المغلق أن يصير منبع رحمة واسعة. أريد أن أضرب بك المثل يجب أن أجعل منك انموذجا للنزاهة الآنفة والشجاعة التي

لا تتزعزع . أريد أن أقدم نفسك الجامحة إلى المثل العليا ، نفسك الصوفية المهذبة ، إلى شباب العالم طراً .

ويشير المؤلف الى مولد ولده المتوفى ثم يتحدث اليه :

إنى أرى وأنا أكتب هذه السطور نظرتك العذبة الهادئة الحزينة نوعاً ، لقد شهدت ولم تتعد السابعة من عمرك مأساة «كبرتو» . ولعل صورة ذلك العهد البعيد المحزن لم تبتعد عن مخيلتك يوما ، لعلك كنت تستطيع أن تكون صالحا كريماً من أجل ذلك : لأنك عرفت الألم والتضحية فى صباك . لقد كنت تحب الحق وكنت تقوله عفوا مجملا . وكنت تحب الموسيقى فلا زلت أسمع ألحان بتهوفن وأنت تنتزعها من أوتار معزفك ، وتحب إلى جانبها علم التاريخ . كان طموحك إلى الأشياء الرفيعة العظيمة ينم عن تلك الميول ومن خلقك التام المركب . كنت تصبو بعينيك دائما إلى المثل الأعلى سواء فى الدرس أو الفن ، سواء فى حبك للطيران أو فى أحلامك الروحية . وكنت تحمل بين جنبيك بشائر حياة نبيلة وعقل راجح ، وطموح يبعث الدهشة السريعة فى كل من يقترب منك

لقد امتازت المأساة التى أصابتنا إصابة لا أمل معها فى السلوى بطابع قاس ، فقد عمل القدر عمله فى الخفاء ولازمت مرضك ووفاتك وقائع تطبع هذه المأساة بطابع غير عاد . لقد قضيت حياتك الدنيوية وأنت أشبه بالقديسين . لقد كنت

من عداد الممتازين من أولئك الذين ينشطون الحياة ويبعثون الآمال. لن أغفل هذا التراث العظيم فهو غرض كتابى هذا. ولكن هناك غرضاً آخر شخصياً يدفعنى إلى الكتابة : إننى أريد فى حديثى هذا معك، أن أعترف اليك أنت الذى لازلت قريباً من نفسى، بما لم أعترف به لأحد. لقد حملت عبء مأساتك سنتين، وتألمت فى سكون. لم أكن أستطيع أن أصارحك بأفكارى. فاضطررت أن أخفى عنك جزءاً من نفسى ولم أكشف لك ولأمك عن الحكم المحتم. لعلنى خلت لك لهذا والداً انانياً. لعلنى لحت لك من بين عنايتى بك ونصائحى لك كوالد مضجر ثقيل. اننى ما كنت أرضى بهذا النفسى فقد كنت أتألم وأحاول فى سكون أن أغلب المرض الذى كان يتربص لحياتك النبيلة بمهارة العلماء وعطفنا عليك.

ويذكر الكاتب ظروف مرض ولده وفحص الطبيب له ثم يقول :

ما ذا كنا نستطيع أن نقول لوالدتك التى كانت تنتظرنا على أحر من الجمر؟ بماذا كنت أستطيع أن أحدثها عن مرضك دون أن أدعها تكتشف الحقيقة بعينيها اليقظتين؟ كنا نستطيع أن نقول لها أنك مصاب بضعف متفش بين الشبان فى استطاعة الطب أن يعالجه بشىء من الحزم. أصلحت من تقاطيع وجهى عند ما عزمت على ذلك حتى ذهب عبوسه بمجهود لا قبل لانسان به وعدنا إلى دارنا بشارع «تريو بمبانو» فاذا بها وكأنها قد

أظلمت ، وقابلتنا أمك على الباب فقلت لها بلهجة طبيعية إن مرضك لا خطر له وإنك تستطيع أن تسترد صحتك بشىء من الصبر والعناية الدقيقة . عادت إلى منزلنا عندئذ بهجته وخيل إلينا جميعاً أن كل ما هناك من جديد يحملنا على القلق هو اضطرارك إلى التخلف عن مدرستك . كنت أنت وأمك تظنان ذلك أما أنا فكنت أغلق قلبى متألماً على سرى المرهق .

ويشير ارتدو الى معالجة ولده ثم يقول :

حاولت عندئذ أن أحسن سيرتى مع أنى لم يسبق لى أن تعمدت الاساءة إلى أحد وأحسنت إلى الغير كلما استطعت . فهل أخطأت فى ذلك أتريد أن تقول اننا لا يجب أن نأتى الاحسان التماسا لجزاء الخالق ؟

ولكننى كنت أجد هذا عادلا إنسانيا ! أليس فى استطاعة الآباء أن يسألوا الله إنقاذ أبنائهم وهم فى زهرة العمر ؟ لقد فعلت كل ما استطعت حتى أنال شفاعته . لقد وصلتنى خطابات عدة كان أصحابها يقولون لى « ليبارك الله فيك وليبارك فى عائلتك فليدم الله لك صحتك وليسبغ عليك نعمته . . . » لقد كنت أظن أنى أستطيع أن أمتنع على الحكم المحتوم بعملى هذا الصامت الذى كنت أقوم به وبتضرعى إلى الله حتى يتم معجزته .

وافاد العلاج سندرينو بعض الافادة حتى ظن والده انه نجا :

عاد السرور إلى منزلنا ، ونظمت لك بناء على رغبتك رحلة

طويلة رافقتك فيها والدتك طائعة مختارة حتى مصر مع كرهها للحياة الصاخبة والرحلات الطويلة ، وقد ملكها السرور حتى كان من يراها يظنها خارجة من مرض مزمن ، مع انها لم تكن تعلم خطورة مرضك ، وكانت تجهل نتيجة فحص الطبيب لك .

زرت بنغازى والقاهرة فرأيت مجرى النيل وشمس افريقيا ومدناً أخرى جديدة زاهيـة الألوان مليئة بالحياة تعيد إلى الذاكرة أياما أخرى ومدنيات غير هذه المدنيات .

وعاد سندرينو الى الدراسة بعد شفائه :

كنت أثناء دراسـتك تواظب على دروس الدين مواظبة الشغف حتى تكونت فى نفسك عقيدة هادئة ثابتة مليئة ،كانت كتب الفلسفة والتاريخ تبعث فى نفسك صورة واضحة للحياة صورة قمينة برجل ناضج واسع العقل متزنه . وكانت حياة النفس تفتح لك أبوابها . وكنت أنت تتعمق بسرور شديد فى ميادينها اللانهائية تتلهف على اتمام معارفك كمن يعلم ان الوقت ينقصه

ولكن سندرينو يمرض من جديد فيشعر والده بالخطر :

لست أستطيع أن أصف حياتنـا فى تلك الأيام وجو المأساة التى كنت أتوقعها مجرد التوقع والتى أخذت تتضح لنـا ساعة تلو ساعة .

ساورتنى اللهفة عليك « ككابوس » لا يعرف رحمة أو هوادة .... كيف تعاقبت الحوادث بعد ذلك ؟ لست أذكرها

بانتظام . ولو ان الذكرى لا تتجرد من النور مهما اشتد ايلامها لنذكر سويا ولتذكرني انت إذا نسيت .

ويصف ارلندو مراحل مرض ولده حتى يوم الوفاة :

لقد كنت تشعر باقترابك من النهاية وقد اثبت لى ذلك بقولك يوما : من المستحيل . لقد انتهيت . لقد انتهيت . واستطاع الاطباء أن يوقفوا نزيفك ، ولكنك ما كدت تفوق من اغمائك حتى طلبت القداس . لن أنسى يوما شعورك الطاهر فى تلك اللحظة فقد قلت لى : لست أجهل أن هناك من يصلى من أجلى فى الكنائس ومن يدعو الله أن يشفينى ، لست أجهل أن هناك من يبتهل إلى الله كل صباح حتى يتم آيته . لقد وصلتنى التعاويذ والصور المقدسة من كل الجهات ووصلتنى زجاجة ملأى بماء الورد . لا أريد أن يحول غيابى عن هذه الصلوات وعدم إقامتى للشعائر بينى وبين تمام معجزة الشفاء . أريد أن أعترف .

ثم يحكى يوم الوفاة :

سجدت حينئذ وقلت : إلهى . انقذ سندرينو فهو صالح طاهر . لم يقل يوما كلمة جارحة ولم يخل بشرائعك ، لقد احب أبويه ومعلميه رفقاءه وجيرانه ولم يتقهقر أمام أية صعوبة كائنة ماكانت . لقد كان تواضعه تواضع الكرامة والأنفة . لقد أحب الوضعاء ولم يقترف يوما ذنبا ما . أنقذ سندرينو ياالهى فهو عماد

الغد وشرف بيتنا وخيره ، لقد دعاه عرافه قديساً . خذنى ياالهى إن وجدت ذنوبا ينبغى أن تكفر . كفنى ، شوهنى . شلنى إن رأيت فى الموت رحمة ولكن انقذ سندرينو . لقد عشت طويلا ولكنه لم يتعد العشرين . لقد اشهقت أخته الصغيرة هذا الصباح بالبكاء الشديد أمام صورة المسيح واعتكف أخوه فيتو فى ألمه المغلق واشغل بالنا . انقذ سندرينو لهم ولأمهم أيضاً . انقذه لجميع الذين يرفعون نحوك الامنيات والنذور من مختلف انحاء ايطاليا . انقذبنى ياالهى . انه سيحترم قانونك االمنزل وقانون بنى الانسان الاخلاقى . بيد اننى شعرت ان دعاءى لن يستجاب . انه لن يحدى فتيلا ، وخيل لى اننى أرى أمامى عقبة لا قبل لى على ازالتها ، وقوة خفية لا استطيع التغلب عليها . لقد كنت تذوى كالغصن يتداعى تحت ثقل أثماره الناضجة . لقد كنت تموت لأنك كنت كاملا ولم تكن من هذا العالم ولكن روحى وكيانى باكمله كان يتمرد . كنت أشعر بشبه الألم الجسمانى الذى يثيره كل بترقاس وانا أتخبط فى قنوط من يشاهد موت أطفاله .

وبزغت الشمس صباح يوم الأربعاء ٢٠ اغسطس تتألق فوق الافق فرأيت سحابة سوداء تخترق السماء فى سرعة واعترتنى رجفة شديدة بينما قال لى طبيبك « انه يموت ولا يتألم » .

لست تذكر ولست تستطيع أن تذكر ماحدث بعد ذلك

لقد كنت بيننا ولكنك لم تكن تستطيع أن ترانا كما ترانا الآن من بعد ، ولم تكن تعود إلى نفسك الا لما ما سأقص انا عليك لآن ما حدث فى تلك الساعات المؤلمة التى حييتها بجانب عذابك الأخير .

انقضى الليل وأنت فى اضطراب مستمر شديد اعقبه شيء من هدوء عم جسمك المنهوك ثم ابتدأ دور نزعك وبدأت تنازع فعلا فى الساعة الخامسة فحملتك بين ذراعى بعد أن شجعت الحاضرين جميعاً وهيأت نفسى ووالدتك وفيتو وأختك الصغيرة لنتقبل سويا المصيبة التى كانت على الأبواب ، سجدنا جميعاً ونظرنا إلى السماء نرفع إلى الله دعاءنا الأخير الصامت القانط . لن أنسى يوما ساعات نزعك . لقد كنت راقداً على جنبك وقد اشتدت حركة تنفسك وأخذت ترعبنا . لقد كان بودى ان احز عروقى جميعاً وأن أنتزع حياتى لأتمكن من التخفيف عنك وتقويتك .

لحظت فجأة انك تبحث عن شيء ما ، لم تكن تستطيع أن تعبر عن شعورك وكنت انا شخصياً لا أستطيع أن أفهمك كنت أتبع كل حركة من حركاتك مهما صغرت فأدركت أنك تريد أن تشرب انك فى حاجة إلى أن تبرد حرقة نفسك اللهفى . ثم اشتد نبضك اشتداداً سريعاً وجمدت عيناك وبرقتا .

ويعلن الاطباء قرب النهاية :

صحت حينئذ فى الحاضرين : افتحوا النوافذ حتى يرى الشمس مرة أخرى . ففهمت أنت دعوتى بينما كانت أشعة الغروب تهيج مخيلتك للمرة الأخيرة وبينما كنت أنت تشكرنى بنظرك الحانى

هدأت حركة تنفسك بعد ذلك هدوءاً تدريجياً بطيئاً إلى أن حانت الساعة ١٩٫٢٥ ففاضت روحك بينما كان يرتسم على وجهك هدوء الملائكة وبينما كنت تختلج لآخر مرة فى حياتك الدنيوية . احتضنك عندئذ سكون الموت الجليل . إننى أرى الآن جمال وجهك المستسلم وما ارتسم عليه من هدوء تكاد تنبعث منه سلام روحك التى أطلقها الخالق .

دعوناك عندئذ نحن الأربعة باكين قانطين راجين أن تلهمنا القوة على الحياة . لن أحدثك ياسندرينو عما حدث بعد ذلك . فقد رأيته من ملكوت الخالق .

ويصف المؤلف جنازة ولده ثم يقول :

لقد وعدتنى ياسندرينو أن تعود « فيما بعد » . ان جثمانك راقد الآن فوق تلك الأكمة فى ذلك المدفن القروى البسيط الذى خلدته الذكريات ... بينما أشعر أنا بروحك المقدسة وهى ترفرف بجناحيها فى أجوائه مطمئنة تنتظرنا فى سكون .

ولكنك تريد أن ينبعث من تلك المقبرة نور دائم . نور إيمان وخير . يجب أن يتحول جميع ألمك الى أعمال خيرية فلعل الله قد سمح لهذا فقط بوقوع الأساة التى قصفت حياتى .

ثم يتحدث عما عقب الوفاة :

لقد كنت أشعر بروحك قريبة منى ، أى سندرينو ! لقد عزيتنى حتى فى بكائى . لقد أسبغ على الجميع نصائحهم ولكننى كنت لا أعير أهمية لنصحهم اياى بالهدوء والاستسلام ولم يخفف من لوعتى حيناً إلا صوت متواضع قال لى يوما : «سندرينو يتألم لألمك هذا» فحاولت أن أهدأ خشية أن أؤلمك .

نصحونى أن ألتمس العزاء فى حياة التأمل وقراءة الكتب المنزلة . كانت النصيحة وجيهة عادلة فأطعتها وأفادتنى نوعا ولكننى لم أجد العزاء الكامل كما كانوا يريدون لى . قرأت كتب الرسل وفهمت ضرورة الألم وواجب التضحية . إلا ان كل هذا لم يكف عنى وخز ذكرى وحيدة هى ذكراك أنت يا بنى . أنت الذى انتزعوك منى أبداً وانتزعوك من الحياة التى كانت تبتسم لك وكلها وعود وثيقة . لقد كانت ساعات الليل الأولى — ولا تزال — هى وساعات الفجر الأولى أشد الساعات ايلاما لنفسى . إننى أشعر حتى أثناء نومى بلفحة ذلك الألم الشديد وهو يحز نفسى فلا أتمكن حتى فى هدوء النعاس وسكونه من أن أنسى ما انتزع من حياتى ، أن أنسى أعز ما بتر واقتطع من نفسى ، أن أنسى أن دعاءى لن يجدى شيئا فى رد ابنى العذب المعبود إلى ثم استيقظ فأواجه مأساتى كما هى فى حدودها المجسمة المخيفة .

من شأن مثل هذه الآلام القوية أن ترفعنا فوق حدود

حياتنا اليومية وأن تنسينا عزة حياتنا الوضيعة ، أن تطهر شعورنا وترفع من شأنها . لذا يجب على كل من يشعر فى نفسه بخلق قوى كامل وذكاء متوقد وروح ذكية أن يستمد القوى الحيوية من العقائد الدينية الفلسفية لا من الزمن أو من العمل الآلى . لم تعزنى المطالعة ولكنها قوتنى ومكنتنى من الانتصار والثبات قرأت فى كتب أفلاطون وصف وفاة سقراط وقرأت حياة المسيح ، قرأت كل شىء وحاولت كل شىء أى سندرينو العزيز حتى لا أؤلمك بألمى الدفين ، أردت أن أتصل بمن بلا الآلام النفسانية لأحظى منهم بكلمة العزاء والهدوء . بحثت عن كل الوسائل ودعوتك فى كل ساعة من ساعات ألمى . حاولت أن أعمل ولكن العمل لم يكفنى فان التعب البطىء يستطيع أن يشغل حواس المرىء برهات محددودة ولكنه لا يعزى .

لازلت أذكر أننى رأيت أمامى ذات يوم وأنا أصعد «سان جوستو» جداراً مرتفعاً ثابتاً مبنياً على هيئة العمود بجانب التل المقدس ، فقلت فى نفسى «هاهو حاجز لا يمكن لأنسان أن يعتليه أو أن يهدمه» لم مر هذا الحادث بمخيلتى الآن ؟ أى علاقة بين الجدار والروح ؟ لا علاقة هناك ومع ذلك فقد كنت أفكر فى وفاتك بحزن فى تلك الساعة وأرفع عينى رفعاً غريزياً فأرى ذلك الجدار المرتفع . ان موتك مأساة لا قبل لى بها ولا مقدرة عليها . يجب أن أنثنى على نفسى فى صمت وأن أبحث عن سبب

مصابى هذا فى أسباب المقدر .

هذه هى ياسندرينو شهور ألمى الأولى. الذى لن يستطيع الزمن بحال من الأحوال أن يخفف من شدته . لقد استعدت الحياة بهدوء تام ولكن كل مايحدث حولى يدور خلف ستار من زجاج بارد ، فلا تؤثر على روحى العوامل التى تؤثر على غيرى . لقد شعرت بأكبر الآلام وتحملت روحى أشد المظالم ، وبلغت حداً من الألم لاقبل لأحد على احتماله .

سندرينو ، لقد قربت نفسى الدينة من الله أكثر من ذى قبل ، حتى خيل لى ان تكريم ذكراك يوم اربعينك والصلاة على روحك ، ورفع الأناشيد المقدسة والدعوات الدينية لسلام نفسك مكملات ضرورية لتمام صعودك إلى ملكوت السماوات لقد وجدت فى آيات الانجيل حقائق أخرى من حقائق الحياة ورأيت فى ظواهر مقبرتك وفى الورود التى كانت تزينها وفى زجاجها وحديدها المزين مظاهر روح خلقت للألم .

يجب أن ترى وتشعر بجميع هذا فليس من المستطاع أن تتم مثل هذه المأساة المركبة بكل هذا العنف ، وليس من المستطاع أن اتبعها بكل هذا الألم إن لم تكن هناك الثقة بالحياة الاخرى والايمان فى فائدة لك أنت الذى تركتنا للابد .

كتبت لى امك المعذبة : اننى اذكرك باستمرار منذ ان ذهبت الى ميلانو حيث لازلت أشعر وكأن ابننا العزيز مقيم فيها

وأكاد أراه خارجا من غرفته باسما يسير بخطواته السريعة نحوى وكله حبور واستبشار . انني أشعر وكأنه رحل فى رحلة طويلة سوف يعود منها أو سوف أتبعه أنا فيها على الأقل فى القريب العاجل . وهذه الفكرة تخفف من لوعتى نوعا ما »

والدتك على حق . لقد سافرت فى رحلة طويلة ، لعلك بلغت المرام ، ولعل سفينتك بالغة مرساها ، ولكننا لا نزال بعيدين وحيدين فى هذا البحر الشاسع ، ولا زلنا ننتظر أن نبلغ مرامنا . وأن نجتاز أفقنا نحن الآخرون .

. . . إنك تملأ حياتى من جهات عدة يا بنى وتشعرنى بروحك الطيبة فى أشد الساعات عبوسا وتجد الوسيلة لمحادثتى دون أن أتوقع ذلك منك حتى تخفف عنى ألمى .

لقد شعرت بك أخيراً قائماً من بين السحب عند ما زرت مدرستك . أنت تعلم كم كان ألمى ذلك اليوم ، لقد أردت أن أن أتسلم شهادتك النهائية شخصيا ولذلك عدت إلى تلك الجدران التى كانت يوما عزيزة عليك عند ما أردت ـ وأردت بإلحاح ـ أن تتم دراستك. لقد كانت تلك الشهادة آخر نصر أحرزته كانت ختام حلقة درس جاد نشط .

رأيت مقاعد الفصول التى قضيت بينها خير أعوام صباك وتسلمت من مدير مدرستك شهادتك . أنت تعلم كنه التأثر العميق الذى اعترانى ساعتئذ . كنت أسمع لغط الفصول

من خلف الجدر واصغى إلى أصوات رفقائك المليئة بالحياة تقاطعها من حين لآخر كلمات المعلمين الجلية . كانت الحياة تدفعهم إلى معترك المستقبل . كان رفقاؤك موجودين جميعاً فى ظل البناء العتيق . أما أنت فكنت غائبا يابنى .

ويختتم المؤلف بالفصل الآتى كتابه :

كان صباح يوم من أيام ديسمبر وقد كاد برد ميلانو وضبابها يثلجان نفسى . خيل لى ان ظلام الليل لا نهاية له ولم أعد أدرى كيف أسكن حزنى . تضرعت حينئذ إلى الخالق حتى يبعث لى بدليل يخفف من ذلك الحزن القانط أو يقنعنى بأننى سأراك من جديد فى الحياة الأخرى . بكيت ذلك الصباح بكاء القانط ولكننى أصلحت من نفسى أخيراً حتى أعود إلى حياة العمل فى الضحى . وقد وجدت فى إدارة الجريدة خطابات ومجلات عدة ثم رسالة كتب ارسلها إلى مجهول من بولونيا . فأعطيت الخطابات إلى أمين سرى وأخذت الكتب ، وأنت تعلم اننى أفعل هذا أحيانا واننى أهتم دائماً بالكتب أكثر مما أهتم بالخطابات .

فتحت الرسالة بينما كنت أحاول أن أحزر مرسلها المجهول فظهر لى كتابان غير كبيرى الحجم أمسكت بثانيهما وفتحته عفوا وإذا بى أقرأ كلمات كأنها منحوتة فى النار تقترب من عينى

وروحى اقتراباً غريباً . كان ما قرأته فصلاعن «الثقة بمشاهدتنا لموتانا فى الحياة الأخرى » .

لقد كانت هذه الكلمات الدليل الواضح لحياتك السماوية فى ذلك الصباح الذى اتتابنى اثناءه ذلك القنوط المريب . دليلا اتانى عن طريق راهب متواضع لا أعرفه .

رأيت فى تلك المصادفة دليلا أكيداً على شفاعتك الرحيمة فتأثرت لها تأثراً عميقاً أعقبه الاستسلام والهدوء . اننى مغمور الآن باليقين . عازم على أن نحسن الموت والحياة : أن نحسن ذلك وهذه فى أرفع الأشكال كرامة للعائلة والوطن فى عالم الخير كما تريد وتحب أى بنى المعبود . انك تنتظرنا من بعيد وتشير لنا إلى الطريق القويم : يجب أن تنشأ من كل هذا العذاب قوة على الحياة وضوء للصلاح . هذا ماتريد وهذا ماسوف يكون

وانت أى زهرة حياتى عاوننا جميعاً فى كل ساعة حتى يتم انسجام أنفسنا فى الحياة والموت وفيما بعد الألم الذى لاحد له .

احاديث لموسوليني

بقلم

امیل لدفيج

تمهيد

لهذا الجزء من الكتاب طابع خاص يختلف فى جوهره اختلافاً كلياً عن طابع الجزء الأول فليس له كبير نصيب من تلك العواطف العائلية العميقة وذلك الشجن العذب الرقيق وتلك الذكريات الحية المقدسة التى يتخذ منها صاحبها رفيقا له فى وحدته وغذاء لايمانه والتى تترك هنا المكان لبوادر الرجولة المجاهدة والشدة الصارمة الملازمة لكل مجهود انسانى يرمى إلى تغيير حالة اجتماعية معينة ساهم الزمن فى تكوينها .

هذا الاختلاف ناجم عن تغير البيئة التى تقع فيها الحوادث التى يتحدث عنها المؤلف لاعن تباين في نفسه أو فى تفكيره فمن الخطأ الشنيع ان يتهم رؤساء الانقلابات السياسية الكبرى والقائمين بها بالتجرد من الشعور الانسانية الرقيقة أو قلة نصيبهم منها لمجرد ميلهم إلى الصلابة فى القيام بواجبهم القومى الذى يفوق بحدوده حدود الفرد وعواطفه كحدود الزمان والمكان التى يتم بها والذى قد يستدعى لذلك كبت العواطف الفردية ويعطى بهذا الكبت مقياساً يقاس به استعداد الفرد للتضحية .

هذه البيئة التى بلاها الشرق ولن تستقيم نهضته ان لم يعد اليها هى بيئة الرجولة الانفة القوية التى تحتقر الحياة السهلة الوضيعة وتضحى

بالشكل فى سبيل الجوهر وتعمل عملا شديدا متواصلا لانشاء أمة جديدة من العدم .

هذه البيئة لازمة لكل أمة تريد أن تبلغ ماوصلت اليه الأمم الأخرى التى سبقتها في طريق المدنية والتقدم، لازمة لمصر فى ظروفها الحاضرة حقيقية لذلك بدرس مفكريها .

* * *

لقد ظننا حتى اليوم خطأ ان نقل مصر من الحالة التى هى عليها إلى مصاف الدولة القوية المتحضرة لا يتطلب أكثر من تقليد أنظمة الحكم وأساليب الحياة المتبعة فى الغرب على أن يتم هذا التقليد الشكلى فى غاية البطء وأكبر قسط من الراحة فلا يتكبد أحد فيه أعياء ولا يتحمل أحد فى سبيله تضحية حتى ولو كلف ذلك مصر القرون الطويلة وهدد وحدتها بالتفكك ومكن منها الاقوياء الذين يحسنون استغلال كل فرصة تتيح لتقوية نفوذهم مع ان تاريخ البشرية يثبت لنا ان الانقلابات الاجتماعية والسياسية الكبرى لاتتم على هذا الوجه ، يثبت ان فى حياة كل أمة من الأمم عهودا تشعر هذه أثناءها بتأخرها شعورا هو الألم فى أوسع معانيه : ألم الندم على الوقت الذى فقد ، والخزى للكرامة التى ديست والمهانة من سخرية الهازئين . عندئذ تستجمع هذه الأمة قواها وتوحد صفوفها ، وتنسى متع الحياة وشكلياتها لتواجه الجوهر فى جميع حقائقه ؛ عندئذ تختفى الاستكانة والدعة أمام الاندفاع والشدة ، تختفى الحياة الهادئة العادية التى تتمتع بها الأمم المستقرة ، وتظهر الحياة النشيطة العنيفة ؛ عندئذ يتلاشى الفرد

في المجموع وتضحى مصلحة الفرد لمصلحة المجموع وتتسع مجهودات الفرد لتحقيق أحلام المجموع ويتم جميع هذا طبقاً لناموس طبيعى أعلى وهو ان الأفراد والأمم التى لم تبلغ فى الحياة حدا معينا من التقدم لاتستطيع أن تتقيد بقوانين الأمم التى بلغت هذا الحد وليس لها الحق فى أن تطبقها على نفسها قبل أن تستوفي عناصر ذلك التقدم ؛ عندئذ تنطبع حياة هذه الأمة بطابع واحد هو طابع الرجولة القوية والتضحية التى لاحد لها والشدة الصلبة التى تصهر الأفراد فى وحدة حديدية مقدسة وتسدد خطاهم ومجهوداتهم وخلجات قلوبهم نحو مثل أعلى واحد يشغل نهارهم وليلهم على السواء ويحتل المكان الأوحد من تفكيرهم وشعورهم في كل ذرة من ذراته . هذا المثل الأعلى هو الذى تنشده ألآن مصر : هو انهاض شعب سقط وبناء مستقبل أعدت عناصره وتجنيب الأجيال الآتية ما وقعت فيه الأجيال السابقة من ضعف وذلة وعبودية .

نعم . لقد آن لنا أن نفهم أن نهضات الشعوب لا تتحقق عن طريق تقليد الجانب الوديع من حياة الأمم الأخرى دون جانب الرجولة والشدة أو انتظار التقلبات السياسية العالمية أو رفع العرائض إلى الهيئات الحاكمة أو الاحتجاج عن طريق الصحف بل بواسطة العمل المادى والأدبى الاجماعي المستمر لكسب الوقت الذى مضى ، ومعالجة الأمراض الاجتماعية التى تعرقل تقدم الأمة على أن تكون هذه المعالجة عملية مادية محسوسة فلا تقتصر على الجعجعة والتهويش

آن لنا أن نفهم أن ليس فى استطاعة أية حكومة كائنة ماكانت

أن تخلق أمة تضافرت الأحداث والقرون على الذهاب بالعناصر الخيرة فيها من العدم فى شهور أو سنين مالم تتعاون معها العناصر الفتية المثقفة من هذه الأمة بعد أن تفهم واجبها وتكرس حياتها لخير لأجيال القادمة وتعلم أولا ان الحياة السهلة الهادئة الوديعة ولنقلها بكلمة واحدة الحياة الطبيعية التى تحياها الأمم الأخرى لاتحق إلا لمن اكتسبها بالتضحية والجهد الطويل، لا تحق لمن لا تزال الأغلبية الساحقة من اخوانهم فى القومية تعيش عيشة القرون الوسطى وتقاسى الآلام بأنواعها فى كل لحظة من لحظات حياتها، لاتحق لمن يعلم ان القوة المادية ماهى إلا مظهر من مظاهر القوة النفسية وان الطعنات التى سددت لكرامة الشعوب الشرقية فى هذه السنين الأخيرة دون أن تجد هذه الشعوب من نفسها الرجولة الكافية لمواجهتها بما هى أهل له ترجع الى انعدام هاتين القوتين معاً.

لقد حنت مصر رأسها مراراً واستكانت مثلها شعوب شرقية عديدة أخرى أمام اعتداء المعتدين. لقد وقفت جهود الشرق العربى عامة من النضال عن حرية فلسطين وعروبتها عند الاحتجاجات الفارغة لقد تعثرت الشعوب الشرقية العربية الفتية فى نهضتها القومية التى لم تتم لأنها أغفلت جميعاً حقيقية شرقية اسلامية واحدة أخذت بها شعوب الغرب الفتية فنهضت وهى تعزيز الحق بالقوة والباس قوة النفس لباسها المادى بتربية الأجيال الناشئة للجهاد فى سبيل المثلى العليا.

آن لنا أن نفهم أن المدنية ليست في أن نبعثر بأموال عمالنا كل صيف في الخارج لسبب وغير سبب وأن يحسن بعضنا الفرنسية

ويقرأ بعض آخر ما تنشره تلك التى يدعونها بصاحبة الجلالة الصحافة — لأنهم كذلك يدعونها فى باريس — فهذه جميعاً مظاهر لها جوهر يجب أن يتوفر قبلها هذا الجوهر هو أن نجعل من فلاحنا رجلا كالرجال ونبعث فى هذه الأمة شعورا حياً بمنزلتها ونوفر لها الوسائل التى تستطيع أن تثور بها على كل اعتداء يوجه لكرامتها .

آن لنا أن نفهم كل هذا ونعمل به إن كنا نريد حقيقة حالا غير هذه الحال والا ذهب ما نفعل وما سوف نفعل هباء منثوراً وقيل علينا العفاء .

المعرب

الفصل الأول

تربية رجل الدولة

مدرســـة الجوع

سألته والجوع ؟ هل رباك الجوع أيضا ؟

فنظر الى بعينيه النجلاوين وهما تبعثان ببريق أسود أملس ودفع بذقنه وفمه إلى الأمام بحركته العادية وخيل لى أنه يذكر شبابه بأسى عميق ثم قال بصوت حزين : الجوع مرب صالح، صالح كالسجن والعدو . لم تكن والدتى تكسب أكثر من ٥٠ ليرة فى الشهر كعاملة ولم يكن والدى يكسب أكثرمما يستطيع حداد بسيط . كنا نسكن غرفتين لا غير ولم نكن نأكل اللحم تقريبا ولكننا كنا نتناقش بحدة ونتنازع ونأمل . سجن والدى من أجل الدعاية الاشتراكية التى كان يقوم بها حتى إذا ما مات شيعه ألف رجل من زملائه فى حزبه . لقد حفزنى كل هذا للعمل ولا شك أننى كنت أكون غيرما أنا الآن لوكان والدى رجلا آخر . لقد تمكنت من تربية خلقى فى دارنا تربية شديدة ولو تفرس الناس فى حينئذ من قريب وأنا لم أتعد بعد السادسة عشرة لرأوا فى ما تراه الآن . ان خروجى من صفوف الشعب أهم حدث فى حياتى .

كان يقول هذه الكلمات بصوت خافت يدوي كالطبلة يطرقها صاحبها على بعد . لقد سمعت هذا الصوت فى لهجتين .

يستعمل أولاهما إذا ما تكلم فى الميادين وعندئذ يدوى صوته بحدة عسكرية كما كان يدوى صوت تروتسكى وهو يخطب فى الجماهير. أما اللهجة الثانية نخافته يظهر فيها تمكنه الوثيق من جميع أعصابه وهو لا يستعملها فى محادثاته الخاصة فقط فقد سمعتها منه فى حديث مع جماعة من العمال لا يقلون عن العشرين.

هذا سر من أسرار حياة هـذا الرجل: فهو يدخر ظواهر قوته الخارجية للمناسبات ويحتفظ بها غالبا تحت تصرفه.

قلت له بعد ذلك: انك تحب الآلات لما فى نفسك من ميل للبناء فهل هـذا الحب يرجع إلى طفولتك عند ما كنت تحتك بالعناصر الأصلية فى حانوت والدك؟ وهل تعتقد أن فى العمل اليدوى تأثيرا فعليا منتجا يفوق تأثير العمل العقلى؟

فأجاب بصوت منتعش: تأثير عميق جـدا، يبقى عميقا فى الانسـان حتى الوفاة. ان من يعمل بالمطرقة أمام النار يغرم بالمـادة التى نود ويجب أن نكيفها حسب ارادتنا. اننى أشـعر بعطف شديد نحو البنائين إذا ما صادفت احدا منهم وهو يزاول عمله، وأود أن أقوم بالعمل نفسه.

فقلت له. لقد قرأت مرة خطابا كتبته وأنت شاب منـذ نحو ٣٠ عاما تخبر فيه صديقا لك عن رحلة إلى سويسرا وتقول فيه على وجـه التقريب ان تلك الليلة التى قضيتها فى نفق «الجوتردو» شطرت حياتك جزءين.

فقال موسولينى . لقد كان هذا أثر تلك الليلة فعلا . اننى أعلم ذلك . كلنا نقرض الشعر فى التاسعة عشرة من عمرنا وكلنا نود أن نبلو الحياة . لقد كنت على أحر من الجمر رغبة فى معرفة العالم حتى أننى طرحت مهنة التعليم جانبا وتركت والدى فى السجن ـ وما كنت استطيع أن أخرجه منه ـ وذهبت إلى سويسرا كعامل بسيط لا نقود معه . اننا فى تلك السن متحمسون أحيانا قانطون أحيانا أخرى . لقد كانت آلام والدى قائمة أمامى دائما ، اشعر بها كما أشعر باحتقارهم إياى فى الكلية وهكذا شببت ولى آمال المعدمين كما ينشأ أبناء الثورة ، ما عساى كنت أستطيع أن أكون حينئذ غير اشتراكى متطرف أو شيوعى ثائر ؟ لقد كنت أحمل فى جيبى دائما نشانا لمركس وكنت اعتبره شبه طلسم .

وما عساك تقول اليوم وأنت تتأمل فى صورة له ؟

انه كان ناقدا عميقا ولحد ما نبيا أيضا بكل مافى هذه الكلمة من معنى . لم أكن حينئذ أستطيع التحدث كثيرا عن هذه الأشياء فى سويسرا . كنت أكثر العمال أدبا وكنت أعمل طول النهار ، ١٢ ساعة فى شركة « أوربا للشكلاته » أو اضطر لحمل حجر البناء فى تعب شديد حتى الدور الثانى ١٢٠ مرة فى اليوم . ولكنى كنت أشعر حتى حينئذ أن كل ذلك لم يكن غير مدرسة اعدادية للمستقبل .

حتى فى السجن ؟

وعلى الأخص فى السجن . اننا نتعلم الصبر فى السجن كما نتعلمه على ظهر السفن فى البحار . فى السجن وفى البحر يتدرب الانسان على الصبر .

سألته عندئذ عن سجنه .

فتقدم بجسمه نحو دائرة نور المصباح وارتكن بذراعيه على مكتبه كما يفعل عادة إذا ما أراد أن يشرح أمراً أو يدقق فى تحديد شىء ثم خفض ذقنه وأبرز شفتيه وحاول أن يخفى خلف حاجبيه ـ بعد أن قطبهما بشكل هائل حقا ـ شعور انبساط خالص ثم قال: لقد سجنت ١١ مرة فى أربع دول ، سجنت فى برنا ولوران وجنيف وترنتو وفورلى وفى أمكنة أخرى عديدة . وقد ارتحت فى كل من هذه السجون راحة ما كنت أستطيع أن أمتع نفسى بها من نفسى . لست ناقما على هذه البلاد ، ولازلت أذكر أنى قرأت فى أحد تلك السجون « دون كيشوت » وابتهجت به ابتهاجا لا يوصف .

فسألته بشىء من الجرأة : لهذا ترمى باعدائك السياسيين فى السجن؟ ألا تبعث ذكرى هذه السجون إلى نفسك بشىء من الشك إذا ما قارنتها بالأحكام التى صدرت ضد أعدائك ؟

فابتسم وبحلق بعينيه كما لو كان لم يفهمنى وقال بهدوء : كلا ، إننى أجد كل هذا منطقيا للغاية . لقد كنت أسجن أنا أولا . أما الآن فالحالة قد تغيرت . إننى أقوم بواجبى .

مدرسة الحرب

قلت له : لقد كان للخدمة العسكرية فى بروسيا رغم شدتها قوة إغراء على النفوس حتى أن أشد الاشتراكيين بيننا تطرفا كانوا ينشدون أناشيد شبابهم العسكرية وأفواههم ملأى بالجعة ولكنك - كما فهمت من خطاب لك - كنت متحمسا لوطنك أثناء الجندية لحد لاعهد لى به فى أى اشتراكى ألمانى حتى أثناء السلم

لقد كنت تصرح بأنك تريد أن تكون مثال الجندى القوى بدلا من أن تتذمر من رؤسائك كما كان يفعل الايطاليون جميعا حينئذ. فهل كنت تفعل هذا بدافع الشهامة أو لتدافع عن شرفك كاشتراكى ؟

فأجاب : للأمرين معا . لقد كنت مثال الجندى حقا ، ولم أكن أرى فى ذلك أى تناقض مع الاشتراكية ، ألا يستطيع الجندى الشهم أن يكون مجاهداً قويا ؟ يجب على الانسان أن يحسن الطاعة قبل أن يتولى الأمر .

ولكننى لا أظنك ارغمت على اطاعة أحد فى أى دور من تاريخ حياتك ؟

أطعت وأنا فى الجندية . أما قبل ذلك وبعد ذلك فلم تتأت الفرصة .

وهل تظن اليوم وقد انقضت خمسة عشر عاما على الحرب

العظمى أن الحرب وسيلة ناجعة لتربية الشباب كما لو كانت مبارزة حقة ؟ وهل تسمح أن يقيم رجل مثلك فى الخنادق بدلا من أن يجلس الى مكتبه ولا تمنع ذلك فى المستقبل ؟ وهل تسمح أن يهلك رجل آخر له من المواهب مثل مالك فى الحرب ؟

لاحظت وأنا أفوه بهذه الكلمات أنه كان يرقبنى لأنى إذا ماتكلمت فى هذا الموضوع فقدت هدوءى ومكنت معارضى من الاحتفاظ بسكونه . كان موسولينى يدور بحركته العادية على مقعده ثم يقرب يديه الواحدة من الأخرى واضعا أنامله الواحدة قبالة الأخرى كما يفعل غالبا فيمكن ناظره من التأمل فى يديه الجميلتين . وهذه ظاهرة لاحظتها فى دكتاتوريين آخرين .

ثم أجاب : إن ما أفعله بهذا الرجل يترتب على الظروف . أما بخصوص المبارزة فهى تنطوى على كثير من الشهامة وقد تبارزت أكثر من مرة . ولكن مدرسة الحرب تجربة عظيمة تستطيع أن ترى أثناءها بنى الانسان عراة فى حقيقة طبيعتهم تستطيع أن تسمع أثناءها اليهم وهم يتساءلون كل يوم وكل ساعة: هل قدر لنا أن نحيى أو أن نموت؟ لقد استطعت أن أعرف قوة الجندى الايطالى حينئذ . كانت الحرب العظمى أول تجربة شديدة نواجهها منذ ألف سنة . لم يقاتل شعبنا كوحدة تامة منذ سقوط الامبراطورية الرومانية برغم تعدد الحروب بين مدينة ومدينة

لم نقاتل حتى وقت سقوط جمهورية فلورنس منذ أربعمائة سنة .
لذا كان نابليون أول من خبرنا فى الحرب وقد كان راضيا .

ولكننى كنت عازما على عدم مناضلته فما كنت أقصد الجدل لأقنعه أو يقنعنى . بل مجرد حديث كنت أريد أن أصل عن طريقه لمعرفته لذا عدت إلى حديث الخنادق وقلت : إننى أعجب من استطاعتك تحمل الحياة مع الجماعة أياما وأعواما لقد قال شاعرنا « وهمل » — وقد ذهب إلى الحرب متطوعا — ان أثقل ما فيها ضرورة الحياة مع الجماعة . فقال موسولينى : هذه هى الحقيقة معى أيضاً ولهذا تعلم الحرب الانسان أيضاً كيف يدافع عن نفسه وكيف يهاجم — هل تعنى الحقيقه أو تقصد التشبيه ؟ هل استفدت من الحرب فى زحفك على روما ؟

نعم ، لحد ما . لقد درست مع رفقائى الضباط خطة الزحف على روما ولو أننى لم أقد الزحف بنفسى .

لقد كان من حظك أن تستطيع الوصول إلى الحكم دون قتال ولكنك لو وقعت فى حرب الآن وخسر أحد ضباطك الموقعة . . .

فنظر إلى بابتسامة سخرية وقال : ثم ؟

— وهدم لك كل البناء الشامخ الذى تشتغل فى اقامته منذ سنين طويلة ؟

فأجاب فجأة وقد ارتسمت على وجهه علامات الجد العميق

ولكنك تعلم أنني تجنبت الحرب فى هذه الأعوام الطويلة .
وسألته هل جرح فى الحرب فأجاب : حتى لم أعد قابلا للنقل وقد حدد أحدهم مكان اقامتى فى جريدة من الجرائد فدمر النمساويون المستشفى ونقل المرضى جميعا إلا ثلاثة منهم وبقيت فى خطر الموت أياما طويلة .
أصحيح أنك لم تقبل أن يخدروك أثناء العملية ؟ فأجاب بالايجاب . كنت أريد أن أرى ما يفعل الأطباء . ألم يكن عملك هذا عملا شاذا ؟ كلا لقد كان هناك شبان كثيرون يذهبون إلى الموت فى حماس ثابت ، ولكن هل مات معظم من مات فى حماس ؟ . وإذا كان هذا حقا فلم لم تنتج هذه الحرب الكبرى قصيدة واحدة كما أنتجت الحروب التى انفجرت للانتقام أو لنوال الحرية أو ما أشبه ذلك ؟ .
ــ كلا ــ اما بخصوص الشعر فانى أظن أن تلك الحرب كانت عظيمة جدا بينما نحن على عكس ذلك .
وحينئذ هل تستطيع حرب الغد الكيماوية التى ستفقد الانسان المقدرة على الدفاع عن شخصه والقيام بأى عمل يمكن أن ينسب إلى البطولة أن تكون مدرسة للشباب ومدرسة لا يمكن ابدالها ؟ .
مدرسة لا يمكن ابدالها ؟ كلا . ولكنها لا تزال تمرينا ناجعا لتدريب الأعصاب على الثبات تحت مطر القنابل .

مدرسة الصحافة

وإذ كنا لا نستطيع أن نتفاهم فى هـذا الميدان فقد تركته وسألته هل استفاد من مزاولة الصحافة ؟

فأجاب بصوت متحمس قاطع كمن ينظر خلفه نحو دور من أعز أدوار حياته : استفدت استفادة جمة . لقد كانت الجريدة لى بمثابة السلاح والشعار ، بمثابة روحى نفسها تقريبا .

واليوم ؟ لم تعرقل عمل الصحافة مع اعتقادك فى فائدتها ؟ .

فأجاب بصوت قاطع أيضاً : ليست الصحافة اليوم كما كانت قبل الحرب . الجرائد تدافع اليوم عن المصالح لا عن العقائد أو على الأقل معظم الصحف . فكيف تستطيع أن تربى من يكتبها ؟ اما من الوجهة الفنية فلا تزال الصحافة معلما بارعا لكل من قدر له أن يشتغل بالسياسة ويندمج فى الدولة لأنها تعلمه الفهم السريع وتعوده كيف يساير الأحوال ولكن الصحافة تستدعى من الانسان أن يكون شابا — لقد قال لى « الأمير بولدف » يوما هذه الجملة : « الصحافة تؤدى بالانسان إلى كل شىء على شريطة أن يخرج منها » . ولكنك وقد تعلمت من الصحافة ما تعلمت وعلمت فى الوقت نفسه

قراءك أكثر من ذلك أفلا ترى أن الرقابة تقضى على هـذا الجزء من النقد المبدع ؟ فأجاب بصوت قد اشتدت نبراته : هذا خيال فاسد . فقد انتقدت هذه الجريدة البارحة — وأخذ يبحث عن الجريدة — مرسوما أصدرته انتقادا لاذعا . ثم أن الجرائد التى تتمتع بحرية الكتابة تنشر دائما ما تريده الشركات والمصارف الكبرى التى تمولها .

فقلت : وهل كان الحال أفضل من الآن وقت ان كنت تنشر أحاديثك فى الصحف أى منذ عشرين عاما وهل درست حينئذ شخصيات محادثيك كما درستها أنا ؟ .

فأجاب : طبعا حدث هـذا مثلا عند ما حادثت بريان فى « كان » وقد تقابلنا بعد ذلك بقليل كوزيرين . لقد كنت دائما من الخبيرين بالشخصيات ولازلت أقرأ الجرائد أكثر مما كنت أفعل من قبل . ولا زلت أفكر وأنا أقرأها أحيانا : لقد كان فى استطاعة هذا الحمار أن يكتب خيراً من هذا . ويحدث ذلك على الأخص إذا ما قرأت مهاجمات عنيفة .

هل تكثر من القراءة ؟

أقرأ كل شىء وعلى الأخص جرائد أعدائى وأجمع صورا كاريكاتورية لدى منها أجزاء متعددة — هناك صور من هـذا النوع لى ولك ومنها صورة ألمانية تمثلنى جالسا على كتفيك فضحك وقال : الصور الكاريكاتورية مهمة وضرورية .

انكم تقولون أن شعبنا يعانى الاستبداد، هل قرأت قصيدة «ترسولى» ؟ انها لاذعة ولكنها ملآى بالدعابة لحد أننى لم أمنع نشرها .

فقلت : ألا ترى أنك كنت قاسياً فى أحكامك كناقد الآن وأنت تستطيع أن ترى الأشياء من الأعلى ؟ أو هل كانت كتابتك حتى حينئذ كتابة بناء لا هدم ؟

فأجاب : لقد كنت دائما أقدم المشاريع ولكننى لم أكن أستطيع الاشراف عليها من الأعلى كاليوم ولذلك ترانى أقل انتقادا لرفقائى .

وهل تخفف من حدتك اذاما كتبت للجرائد الآن ؟

فنظر إلى نظرة حادة وقال :

اننى لا أحسن الكتابة إلا إذا كانت حارة قاطعة .

فسألته : وهل كنت تشعر فى تلك السنين التى لم تنل أثناءها بالعنف شيئا أن كل ما كان يحدث حولك لم يكن إلا مقدمة لحياة جديدة ؟

فانبسط وجهه مرة أخرى وهو يحملق فى هذه اللحظات بعينيه كما لو كان يريدان يستشف النور وقال : لقد كنت أشعر شعور ايمان لا يتزعزع أن كل ما يحدث حولى وكل ما أعانيه على الأخص ما هو إلا استعداد لأمور أهم وأعظم .

مدرسة التاريخ

وصلتنى أثناء إقامتى حينئذ فى روما هدية ثمينة هى نسخة من كتاب مكيافللى وكانت مطبعة «الدولة الفاشية» قد طبعته على ورق فاخر وأهدته لموسولينى فى شىء من المغالاة.

إننى أفضل أن تكرم الدول الدكتاتورية ذكرى معلم الدكتاتوريين بدلا من أن تحقق سياسته فى السر وهى تعتبر الانتساب اليه كاهانة لا تغتفر. لقد ألف «فدريك الأكبر» كتابه الاجتماعى «نقد المكيافللى» وهو ولى عهد بروسيا ولكنه ثاب الى نفسه بعد ذلك وسلك سياسة تختلف عن نظريته هذه اختلافا مبيناً ولو أنها كانت أقرب الى نفسه وأصدق لشعوره

سألت موسولينى عند ما زرته بعد ذلك: لقد ابتدأت دراساتك السياسية بمكيافللى أليس كذلك؟

فقال: لقد كان أبى يقرأه كل مساء بينما كنا نصطلى بجانب بقايا النار فى حانوته ونحتسى نبيذنا البلدى. كنت أتأثر لسماعه تأثراً عميقاً لا يقل عن تأثرى به عند ما قرأته بعد ذلك ولى من العمر أربعون سنة.

فقلت له من الغريب أن يظهر مثل هؤلاء الكتاب ثم يزولون

ثم يعودون للظهور كما لو كانت لهم فصول يشرقون فيها .

فأجاب: فصول الشعوب أدهش فربيعهم وخريفهم يتجددان باستمرار الى أن يفنوا .

— إننى لا أخشى لهذا الركود الألمانى الحالى .

لقد ثار «جيت» منذ مائة سنة عند ماكان الألمان يعيشون فى حالة سيئة تشبه حالتهم الحالية على نظرية تدهور الشعب الألمانى فى حدة وشك.

أدرست حياة بعض الساسة والمفكرين الألمان ؟

فأجاب فى سرعة : «بسمرك» من جهة سياسته الواقعية . لقدكان أعظم رجل فى عصره . لقد اعتقدت دائماً أنه لم يكن فقط الرجل ذا القبضة الحديدية والرأس الصلعاء. وقد وجدت فى كتابك الدليل على عمق طبيعته وغزارتها . هل يعرف الألمان «كافور» ؟

فأجبت : قليلا جداً . إننا نعرف ماتزينى . وقد عثرت هذه الأيام الأخيرة على خطاب مدهش أرسله على ما أظن بين سنتى ١٨٣١ و ١٨٣٢ الى «كارلو البرتو». فوجدته عبارة عن رجاء شاعر الى ملكه . هل توافق على سجن هذا الأمير له بعد قراءته هذا الخطاب ؟

فأجاب موسولينى : الخطاب من أبلغ السندات التى كتبت حتى أيامنا هذه ، دون شك . مازالت صورة «كارلو البرتو»

غامضة على الايطاليين حتى اليوم . لقد نشروا أخيراً مذكراته الخاصة وهى توضح صورته بعض الشيء . لقداشترك الرجل فى أول الأمر فى حركة الأحرار ولم يتعقب ماتزينى فى سنتى ٣٢ و٣٣ الا فى حالة سياسية خاصة .

دفعنى تحوط هـذا الجواب الى التصريح بالمقارنة الخفيـة الدائمة بين ماضيه ومستقبله فقلت : لقد حدث هذا عندما كانت الحكومة الايطالية تعتبر « إيطاليا الفتاة » جمعية غير مشروعة ألا تظن أن الرقابة تمنع دائماً مثل هذه الحركات من الظهور ؟ هل كنت تسجن ماتزينى اليوم ؟

فأجاب بصوت ثابت : كلا دون شك . إننى مستعد لمقابلة كل من يريد أن يقدم لى فكرة تجول فى رأسه وأن أناقشها معه ولكن ماتزينى نفسه لم يكتب خطابه إلا تحت تأثير عاطفته لا عقله لقد كان سكان البيومنت لا يتعدون حينئذ الأربع مليون نسمة وكانت حكومته فى حالة ضعف تام ازاء النمسا وسكانها البالغين ٣٠ مليوناً .

فابتدأت من جديد : وهكذا سجن ماتزينى وحكم على جاريبلدى بعـده بالموت وسجنت أنت نفسك بعدهما بجيلين ، ألا يجب أن يترتب على هذا أن تحتاط كل حكومة ما استطاعت فى معاقبة معارضيها ؟

فسألنى بصوت محتد : أتظن اننا لا نحتاط فى هذه الظروف ؟ لقد ارجعت عقوبة الاعدام بعد إلغائها .

فقال : هـذه العقوبة موجودة فى كل الممالك المتمـدنة . فى ألمانيا وفرنسا وانجلترا.

فاستطردت : ولـكن نظرية إلغاء عقوبة الاعـدام نشأت عندكم وشاعت عن طريق كتب «بكاريا» فلم أرجعتها ؟ فأجاب:

لأنى قرأت بكاريا . ولم يكن يسخر أو يظهر على وجهه أى أثر للسخرية بل استمر بكل رزانة : لم يكتب هذا الرجل حقيقة ما تظنه الأغلبية . ثم ان الجرائم زادت فى الاعوام الأخيرة عندنا زيادة فاحشة بمعدل خمسة أضعاف ما يحدث فى انجلترا . إننى أتبع فى هذه المسألة النظريات الاجتماعية لاغير . ألم يقل القديس تومازو بوجوب بتر الذراع الفاسدة حتى لا يفسد كل الجسد؟ ولـكننى مع ذلك أنظر فى الأمر بكل حذر وتسامح ولا أدعهم يحكمون بالاعدام إلا فى الحالات القاسية التى تظهر فيها طبيعة الاجرام . لقد عذب رجلان منذ عامين طفلا ناشئاً ثم قتلاه وقدما للمحاكمة وتابعت أنا القضية خطوة خطوة حتى إذ شككت فى اللحظة الأخيرة عند مارأيت أن أحد المجرمين كان شيخا يعشق الاجرام وسبق أن عوقب أكثر من مرة بينما كان الثانى شاباً لم يسبق له أن ارتكب جريمة ما أمرت بأن تؤخر ساعة الاعدام قبل حلولها بست ساعات وحملتهم على الافراج عن الشاب .

فقلت : ولـكن هذا من امتيازات الدكتاتورية .

فأجاب محتداً على ملاحظتى القاسية :

وما عدا ذلك فآلة حكومية تسير بدافع قوتها الذاتية ولا يستطيع أى إنسان أن يوقفها .

فقلت: أتحب أن ننتقل من هذا الحديث الخطر الى التكلم، فى موضوع نابليون بصفته أقرب موضوع الينا؟

هيا بنا

انني لم أفهم من حديثنا السابق بوضوح ان كنت تنظر إلى نابليون كمثل تقتدى به أو كعبرة ليس إلا . فاستند إلى الخلف وقطب وجهه وقال بصوت محبوس : كعبرة . لم أقتد يوما بنابليون وليس بينى وبينه أى شبه فرسالته تختلف عن رسالتى كل الاختلاف والدليل على ذلك انه ختم الثورة الفرنسية بينما بدأت أنا الثورة الفاشية . لقد دلتنى حياته على العيوب التى يصعب على الانسان عادة تجنبها . وهى ، وراح يعد على أصابعه: المحسوبية والنزاع البابوى وانعدام الروح الاقتصادية والمالية . انه لم يلاحظ فى حياته غير أن دخل حكومته كان يهبط بعد انتصاراته .

لم أرد أن أجتاز بأسئلتى تلك النقطة التى لم يكن أحد غيره يستطيع أن يلمسها . فعدت إلى التاريخ وسألته كما لو لم أكن أعلم ذلك : ما سبب سقوطه ؟ أساتذة المدارس يعتقدون أنها انجلترا .

فقال : كلام فارغ لقد سقط كما تقول فى كتابك بسبب تناقض طبيعته الدفين ، وهو تناقض يحكم بالسقوط على كل من يظهر فيه . لقد أراد أن يكون ملكا وينشأ عائلة مالكة . لقد كان عظيما وهو قنصل بسيط حتى إذا ما اعتلى العرش بدأ يتدهور . لقد أرغمه التاج على مواجهة حروب جديدة . أنظر إلى كرمول بعكس ذلك : رجل فيه قوة الفكر وقوة الحكم دون الميل إلى الحرب .

سحبته بهذه الطريقة إلى موضوع من أهم المواضيع . فقلت: هناك إذاً سيادة دون امبراطورية ؟

هناك « نصف دستة » سيادات . لا ضرورة البتة للامبراطورية بل انها خطرة تفقد قوتها المنظمة كلما اتسعت ولكن الميل إلى السيادة قوة أولية فى طبيعة الانسان تشبه كل الشبه ارادة الحكم . اننا نشهد الآن سيادة الدولار وقد شهدنا يوما ما سيادة دينية وسيادة فنية تشترك كلها فى الدلالة على قوة الانسان الحيوية . الانسان يميل إلى السيادة ما دام على قيد الحياة ولا يفقد هذا الميل إلى الممات .

رأيت فى موسولينى ، تلك اللحظة ، شبها غريبا بينه وبين نابليون وقد تغيرت ملامحه ولهجته عند ما ختم كلماته قائلا : لكل امبراطورية دون شك قمة تقف عندها لأنها دائما صنيعة رجال نابغين ، فى طبيعتهم بذور الفناء والسقوط . فيهم عنصر

التوقيت كـكل شيء شاذ ولـكنها قد تدوم قرنا أو قرنين أو عشرة قرون حسب ارادة تحكم القائمين بها .

فسألته : وهل لا يستطيع الانسان أن ينقذ هـذه الحالة إلا بالحروب ؟

فأجاب وقد تقدم بصدره واستند بذراعه كما لو كان يخطب من أعلى مكتبه : ليس بالحرب فقط . العروش فى حاجة إلى الحرب لتدعيم نفسها أما الدكتاتوريات فليست دائما فى حاجة لها . هنالك دكتاتوريات تستطيع أن تستغنى عن الحروب قوة الأمم نتيجة عناصر جمة لا العنصر الحربى فقط ولـكن قوة الأمم فى الحروب كانت حتى اليوم المقياس الذى تقاس به مكانتها ، حسب الرأى الشائع . لقد كانت القوة العسكرية حتى اليوم مثل خلاصة قوى الأمم جميعا .

فقلت: لقد كان هذا حتى أمس . وغدا ؟

فأجاب بصوت الشاك : غدا لن تكون مقياسا صائبا لذا أرى ضرورة وجود حكم بين الدول . على الأقل انضمام قارة بأسرها . حتى إذا ما انضمت الدول سرنا إلى ضم القارات . إلا أن هذا فى أوربا صعب جدا لأن كل شعب من شعوبها يختلف عن الآخر لغة وعادات وطبيعة . لـكل من الشعوب الأوربية جانب خاص يعوق الانضمام . اما فى أمريكا فالأمر أسهل بكثير .

فسألته من جديد : ولكن أليس فى كل شعب جانب آخر يسهل الانضمام ؟ .

يوجد خارج قوة كل أمة . لقد أراد نابليون أن يوحد أوربا . وكانت هذه رسالته وموضع فخره . ولعل هذا أسهل الآن منه حينئذ ولكن للحد الذى كان يفهمه شارلمان وكارل الخامس أى من المحيط إلى الأورال.

إذن ليس إلى الفيستولا فقط ؟

ألم تتصور أنت أوربا هذه تحت قيادة الفاشية ؟

فسألنى بصوت حاد : ما تعنى بالقيادة ؟ ان فاشيتنا كما هى فيها عناصر قد يستطيع غيرنا أن يأخذها .

وختم المؤلف هذا الفصل بقوله :

فأجبته : لا يريد أحد أن يكون ملكا بعد اليوم . لقد قلت أخيرا لفؤاد ملك مصر أن الملوك يجب أن يحظوا بحب شعوبهم بينما يجب أن يبعث الدكتاتوريون بالخوف فى نفوس جماهيرهم فأجابنى : كم أود أن أكون دكتاتوراً .

أفى التاريخ الانسانى غاصب أحبه الشعب رغم اغتصابه ؟

فعاودت موسولينى علامات الرزانة وقال بعد لحظة صمت بصوت بطىء : لعله « قيصر » لقد كان قتل «قيصر» مصيبة على الانسانية . ثم استرد بصوت خافت : انى أحب « قيصر » لقد كان يجمع فى نفسه عزيمة المقاتل ونبوغ الحكيم . لقد كان فيلسوفا ينظر إلى الأشياء من حيث هى فى أبديتها . نعم لقد

كان يحب المجد ولكن كبرياءه لم تكن تبعده عن الانسانية .

فى استطاعة الدكتاتورين أن يحظوا بحب شعوبهم إذاً ؟

فقال بصوت المتأكد هذه المرة : دون شك إذا كانت هذه الشعوب تخشاهم فى الوقت نفسه . الجماهير تحب الرجال الأقوياء الجماهير كالنساء .

وقد صرح موسولينى للمؤلف نفسه بما استحسنت ذكره فى هذا الباب عن رأيه فى رجل السياسة وفى جنسية الشعوب :

الرجل السياسى محتـاج دائماً للخيال وإلا فهو جاف ولن يصل الى شىء ما ولـكنه فى هذا سواء مع كل الناس. فليس فى استطاعة أحد منا أن يصل الى شىء أن لم يكن له شعور شعرى، ان لم يكن له خيال .

هل تعتقداذاً فىالشبهة بين الشاعر والسياسى هذه الشبهة التى وجدتها فىدراساتى ؟ أتظن أن شاعر المسرح يستطيع أن يعد الطريق لرجل السياسة ؟ وهل يسبق الشاعر عادة الثورات ؟ دون شك . الشاعر بنى العهود الجديدة دائماً .

* * *

ليستهناك أجناس خالصة حتى اليهودية نفسهاولـكن نفس الاختلاط هو غالباً منبع القوة والجمال فى حياة الأمم. الجانسية شعور لاحقيقة . ثم أن العزة القومية ليست فى حاجة الى تعصب الجنسيات .

مذكرات الحرب

اقتطفت القطع الآتية من مذكرات موسوليني عن اشتراكه في الحرب العظمى للتدليل على أن الوطنية يجب أن تكون عملية لا كلامية فقط :

١٧ سبتمبر

ونصل في المساء الى منطقة مكشوفة بينما تصفر الطلقات في الهواء صفيرها المعهود فتؤثر في نفس رفقائي. كنت أسير حينئذ في آخر الصف وأشجع القريبين مني حتى اذا ما انقضت برهة التأثر الأولى تابعنا سيرنا المتعب وعلى أكتافنا الزمازم تحت نيران مدفعية العدو السريعة .

وفجأة تنفجر قنبلة بجانب صف من البغال ولكنها لا تقتل أحداً ثم تسقط أخرى بجانب نفر من زملائي وتنفجر فتثير سحابة من الغبار . ويصيح أحد هؤلاء الزملاء من الألم فقد هشمت شظاياها قدمه . ثم تنفجر قنبلة أخرى بجانب جند آخرين كنت بينهم فتهشم أغصان شجرة كبيرة وتكسونا بورقها وطينها ولكنها لا تجرح أحداً .

١٨ سبتمبر

رأيت صلباناً أخرى لا تحمل أسماء لأنها قائمة على حفرة

واحدة . ما أتعس حظ هؤلاء الأموات المقبورين فى هذه الحفرة المنفردة . إننى أحمل فى قلبى ذكرى لهم لن أنساها .

انكمشنا بين الصخور تحت النجوم وإذ بضابط يمر بنا ويأمرنا بتعبئة بنادقنا ووضع السنج فيها موصياً أيانا ألا نترك أماكننا لأى سبب من الأسباب .

ابتدأ القتال فى الساعة العاشرة فاذا بنا نسمع شبه فرقعة البنادق الايطالية الجافة المزعجة وضوضاء البنادق المتكاثرة وأزيز « موتوسكلات » الموت وهى تعدو عدوها المشئوم وقد اشتدت سرعتها اشتداداً رهيباً حتى بلغت ٦٠٠ عديداً فى الدقيقة بينما راحت القنابل تقطع الهواء وتزيد من وهج النار فتصبح بعد منتصف الليل كنار جهنم .

ويستمر القتال ويحمى وطيسه على طول الخط وتنهال الطلقات على رؤوسنا انهيالا متلاحقا .

وفجأة يصيح صائح : انطرحوا ! انطرحوا أرضاً ولكننى أضطر للوقوف حتى أترك مكانى لجريح انفجرت بجانبه قنبلة ضخمة ذهبت بذراعيه فوقع وهو يطلب إلى بصوت يئن من الألم قليلا من الماء يروى به عطشه ولكن رجل الاسعاف رجانى ألا أقدم اليه الماء فاكتفيت بتغطيته بغطاء من الصوف وتركته فى حراسة الله .

اشتد البرد وعم السكون حتى اذا اقترب منتصف الليل

أيقظنا دوى هائل لقنبلة نمساوية انفجرت فجأه فذهبت بجزء من قمة الجبل وبفرقة كاملة من اللواء الثامن التى كانت تحتلها ولم تكد تختفى حتى اخترق السماء المكفهرة بريق هائل ورج الوادى حولنا رعد عميق .

١٩ سبتمبر

لاحظت بين الجثث جثة جندى لم أتعرف اليه إلا البارحة فقط وقد لفت رأسه فى قماش من أقمشة الخيم كما لفت جميع الجثث الأخرى حتى لم يكن يبدو منها إلا أياديها المتصلبة سوداء يعلوها طين الخنادق .

٢١ سبتمبر

لم تفلح العسكرية الألمانية فى إيطاليا مطلقاً ، ثم أن هذه الحرب التى قامت بها الشعوب لاجيوش المعسكرات هى فى الواقع الدليل المادى على زوال المهنة العسكرية .

٢٧ سبتمبر

لم أتذوق طعاماً منذ صباح أمس إلا جرعة من القهوة الباردة مع أن المطر لم ينقطع منذ يومين . ولم أغمض عينى هذه الليلة فقد قضيتها تحت الخيمة مع زميل فلاح كان يتذمر وقد ابتلت ثيابه كما ابتلت ثيابى واعترته الحمى .

٣ مايو

يقرأ موسوليني صباح هذا اليوم هذه الصفحة من كتاب لاتزيني :

« لا يستطيع الأنسان أن يقوم بالأعمال العظيمة معتمدا على القيود الدبلوماسية وهو لذلك فى حاجه إلى فهم القرن الذى يعيش فيه وإلى الأرادة التى هى سر القوة .

إننا فى حاجة إلى الرؤساء إلى أولئك القليلين الذين يحسنون القيادة ، إلى الأقوياء بأيمانهم وتضحيتهم ، إلى من يستطعون القبض على رغبة الجماهير الجامحة ويفهمون نتائجها ويتفجرون بالشعور الكريمة فيصهرونها فى كيان واحد هو كيان الانتصار . . . الى من يقدرون كل العناصر ويجدون كلمة الحياة والنظام للجميع ، الى من ينظرون الى الأمام لا الى الخلف ويزجون بأنفسهم بين الشعب والعوائق التى تقوم فى وجهه زج المستسلم المحكوم عليه بتضحية نفسه على مذبح الشعوب ، الى من يدينون بشعار . الفوز أو الممات . والذين يحافظون على وعودهم .

٢٥ مايو

« لقد تحجر قلب الانسان حتى أصبح كهذه الصخرة . لقد أصبحت المدنية الحديثة كالآلات لانفس لها .

٢ نوفمبر

هل يحب هؤلاء الرجال الحرب ؟ كلا . هل يكرهونها ؟ كلا ، أنهم يقبلونها كواجب لا جدل فيه .

ويتكلم عن حالة المقاتلين المعنوية فيقول :

الحالة المعنوية هي النسبة المئوية الأساسية للفوز . يفوز فى الحروب من يريد أن يفوز . يفوز من يملك أكبر كمية من القوى النفسية التى تعرف كيف تريد .

١٨ مارس

لقد أفلس مبدأ الآخاء المسيحى فى هذه الحرب بين بنى الانسان ، ولم يقدم للعالم فرداً واحداً من أتباعه يستطيع التضحية أو العصيان . وهكذا أفلست الاشتراكية أيضاً . أفلست هاتان العقيدتان إذ هما لم يدفعا بأحد الى التضحية واحتملا الزوبعة فى استسلام وخمول . لم يذهب الى الموت مسيحى واحد أو اشتراكى واحد باسم المسيحية أو الاشتراكية .

وهذا لعمرى بوار مخيف بوار أدبى وتاريخى للزهد المسيحى والمادية التاريخية فكل فكرة تميل الى الزوال اذا لم تجد أحداً يستطيع الدفاع عنها بحياته .

وهذا هو رأى الرجل فى مشكلة الاستعداد العسكرى من خطاب له فى مجلس الشيوخ :

هل تظنون ياحضرات الشيوخ ان الحرب التى خربت أوربا وأدمتها منذ أول أغسطس سنة ١٩١٤ الى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ كانت حقيقة كما يقولون آخر حرب عرفها التاريخ ؟

ان الانتباه الذى أصغيتم به الى المناقشات هذه الايام يدلنى على انكم لا تقاسمون المتفائلين هذا الظن الجميل والخطير فى الوقت نفسه . لكل الحروب العالمية مبرر تاريخى ولكن الحرب فى حد ذاتها ، ولكن الحرب التى تتعقب أبناء البشر من يوم قابيل حتى اليوم، لم تفسر بعد . فلتكن الحرب مسببة الأشياء جميعا كما كان يقول « اركليت » ولتكن منبعاً إلاهياً كما قال «بردون» بعده بخمسة وعشرين قرنا . لتكن العنصر الذى تستمد منه الانسانية بذور تقدمها . لتكن كل ذلك فالحقيقة هى اننا نستطيع أن نقول اليوم ان الحرب التى دخلناها والتى لى فخر الاشتراك فيها كنفر بسيط ليست الأخيرة ، والدليل على ذلك ان أوربا شاهدت بعدها حرب الروسيا وبولندا وحرب اليونان مع تركيا فضلا عن الحروب الصغيرة الأخرى .

ويشير بعد ذلك الى ضرورة الاستعداد لمفاجآت السياسة ثم يستطرد :

يجب اذاً أن نزيد قدر استطاعتنا الانسانية من استعداد

الأمة العسكرى . ماهو هذا الاستعداد؟ هو النتيجة الأخيرة لجميع القوى التاريخية والمالية للشعوب ، أقول جميع هذه القوى فان تقوية التيار الكهربائى فى خط من خطوطنا الحديدية ، تقوية تقلل من حاجتنا إلى الفحم زيادة لاستعداد الأمة الحربى . وانزالنا باخرة جديدة الى البحر تحمل اسم أحد أبطالنا البحريين عنصراً آخر يزيد من استعداد الأمة الحربى . وأقول القوى التاريخية لأن هذه القوى أيضا تؤثر تأثيرا عميقا فى مصير الأمم . أتعلمون ما أهمية ذكرى نابليون فى مجد فرنسا العسكرى؟

ولكن لا شك فى ان جميع القوى الاقتصادية والسياسية والحربية مضافا اليها انتشار الثقافة فى أرفع مظاهرها لا تكفى الأمم إذا استسلمت الى حياة الرخاء والاستمتاع الذليل ولم تجد فى نفسها القوى الكافية للقيام بالمجهود العسكرى اللازم

الاستعداد العسكرى للأمة هو اذاً النتيجة المركبة التى تنجم عن تنظيم استعدادها الحربى والاقتصادى والأدبى والصناعى لاعن مجموعها فقط . الاستعداد العسكرى للامم نتيجة مركبة تنجم عن تنظيم استعداد الجيش والبحرية والطيران تنظيما متناسقا لاعن مجموعها فقط والاستعداد الحربى لكل هذه الأسلحة نتيجة تنظيم الفرق والآلات والأرط وتنظيم استعمالها.

* * *

وهذا تصريح له عن مذهبه السياسي :

لقد اصبحت الفاشية اليوم حزباً وجيشاً وثقافة . كل هذا لا يكفى ، يجب أن تصير اسلوبا لحياة جديدة .

ماهو هذا الأسلوب؟ الشجاعة قبل كل شىء ، البسالة ، حب الخطر ، كره البطالة والاستسلام . الاستعداد للقيام بكل عمل جرىء فى الحياة الفرديةوالحياةالاجتماعية . كره كل ماهو خامل أما فى العلاقات الشخصية فالصراحة التامة والأحاديث المكشوفة لا الهمسات السرية النكرة النذلة .

انى أصرح بأن ليس من الممكن أن تنقل الفاشية إلى الخارج بسبب اختلاف العناصر التاريخية والجغرافية والاقتصادية والأدبية ولكننى أصرح فى الوقت نفسه بأن فى الفاشية عناصرأحيوية لا يمكن أن ينكر الانسان طابعها العالمى

لقد شعر العالم أجمع بأن النظام البرلمانى أتى بفائدته ودام بضع عشرات من السنين فى تاريخ القرن التاسع عشر ولكنه اليوم غير كاف لاحتواء ضغط حاجات المدنية الحديثة ورغباتها

دار "مجلى" للطبع والنشر
القاهرة — شارع الداخلية
تليفون ٥٥٤٥٥ و ٥١٤٥١